

@ketab_n
Follow Me
31.12.2015
غسان كنفاني
الأدب الفلسطيني المقاوم
تحت الإحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

دراسة

غسان كنفاني

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

منشورات الرمال



مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

Twitter: @ketab_n

جميع الحقوق محفوظة © السيدة آني كنفاني

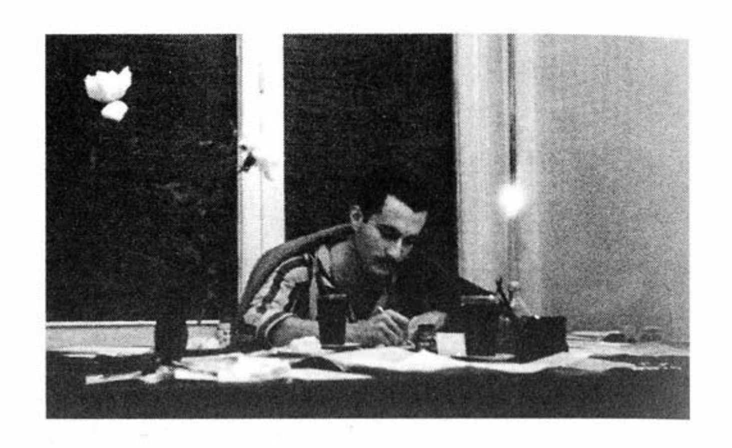
دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013
طبعة سنة 2015

ISBN 978-9963-610-89-1

نشرت هذه الدراسة في طبعتها الأولى سنة 1968
صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
الغلاف: ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف: لوحة لغسان كنفاني
طباعة: مطبعة كركي - بيروت

Twitter: @ketab_n



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

Twitter: @ketab_n

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

Twitter: @ketab_n

... إلى أبي
وإلى روح أمي
جناحي المقاومة اللذين حملاني
عبر وعورة الهزائم والمرارة

غ.ك.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مقدمة

ليست المقاومة المسلحة قشرة، هي ثمرة لزرعة ضاربة جذورها عميقاً في الأرض، وإذا كان التحرير ينبع من فوهة البندقية، فإن البندقية ذاتها تنبع من إرادة التحرير وارادة التحرير، وليست سوى النتاج الطبيعي والمنطقي والحتمي للمقاومة في معناها الواسع: المقاومة على صعيد الرفض، وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور والمواقف.

ومثل هذا النوع من المقاومة يتخذ شكله الرائد في العمل السياسي والعمل الثقافي، ويشكل هذان العملان المترافقان اللذان يكمل واحدهما الآخر الأرض الخصبة التي تستولد المقاومة المسلحة وتحتضنها وتضمن استمرار مسيرتها وتحيطها بالضمانات.

ومن هنا فإن الشكل الثقافي في المقاومة يطرح أهمية قصوى ليست أبداً أقل قيمة من المقاومة المسلحة ذاتها، وبالتالي فإن رصدها واستقصاءها وكشف أعماقها تظل ضرورة لا غنى عنها

Twitter: @ketab_n

لفهم الأرض التي ترتكز عليها بنادق الكفاح المسلح.

وفي الفترة التي امتدت بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٨، قدم المثقفون العرب في فلسطين المحتلة، من خلال أقسى ظروف القمع، والأسر الثقافي، نموذجاً تاريخياً للثقافة المقاومة، بكل ما فيها من وعي وصمود وصلابة، وأهم من ذلك، بكل ما فيها من استمرار وتصاعد وعمق.

وفي الواقع فإن أدب المقاومة – على وجه الخصوص – لم يكن أبداً ظاهرة طارئة على الحياة الثقافية الفلسطينية، وفي هذا النطاق فإن المقاومة الفلسطينية قدمت، على الصعيدين الثقافي والمسلح، نماذج مبكرة ذات أهمية قصوى كعلامة أساسية من علامات المسيرة النضالية العربية المعاصرة.

وحفل التاريخ الفلسطيني، منذ الثلاثينات على الأقل، بمظاهر المقاومة الثقافية والمسلحة على السواء، وإذا كانت الثورات المسلحة التي خاضها شعب فلسطين قد أنتجت أسماء من طراز عز الدين القسام مثلاً، فإن أدب المقاومة قد أنتج، قبل ذلك ومعه وبعده، أسماء من الطراز نفسه، ما زال المواطن العربي يذكرها بكثير من الاعتزاز، ومن أبرزها إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وأبو سلمى (عبد الكريم الكرمي) وغيرهم.

Twitter: @ketab_n

ومن هذه الناحية فإن أدب المقاومة الفلسطيني الراهن، مثله مثل المقاومة المسلحة، يشكل حلقة جديدة في سلسلة تاريخية لم تنقطع عملياً خلال نصف القرن الماضي من حياة الشعب الفلسطيني.

ولكن ما يميز الأدب المقاوم في فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٨ هو ظروفه القاسية البالغة الشراسة، التي تحداها وعاشها، وكانت الأتون الذي خبز فيه إنتاجه الفني، يوماً وراء يوم.

لقد كان الحصول على نماذج هذا الأدب المقاوم صعباً للغاية، ومن المؤكد الآن أن هناك نماذج لم يتيسّر قط نشرها، ولا نعرف فيما إذا كان من الممكن نشرها خلال الفترة الوجيزة القادمة، وكذلك فإن تراثاً كبيراً من الشعر الشعبي الفلسطيني الذي ولد وترعرع وانتشر في الريف الفلسطيني خلال العشرين السنة الماضية لم يتيسر لنا قط الحصول عليه بالصورة التي تتيح استخدامه لدراسة منفصلة أخرى، وإن كانت الجهود الحالية في هذا النطاق تبشر بإمكان ذلك.

في هذا المجال لا بد من الإشارة إلى أن البحث التالي ليس طبعة جديدة أو منقحة لكتابي الذي أصدرته دار الآداب باسم

Twitter: @ketab_n

«أدب المقاومة في فلسطين المحتلة»، بل يمكن اعتباره إلى حدّ بعيد دراسة مكملة، خطوة ثانية في هذا النطاق، ولا يسعني إلا أن أشير إلى أن الكتاب الأول يعتبر مقدمة ضرورية لهذا الكتاب، سواء من حيث التحليل، أو من حيث النماذج.

وإذا كان لا بد من الاستطراد في هذه النقطة الشكلية، ولكن الهامة، فهناك ملاحظتان لا بد منهما:

الأولى أن معظم النماذج التي اخترناها في هذه المجموعة حرصنا على أن تكون من خارج نطاق النماذج التي باتت متوفرة الآن، والتي ستطبع في مجموعات شعرية منفصلة خلال الفترة الوجيزة القادمة.

والثانية أن دراسات تحليلية عديدة لأدب المقاومة الفلسطيني، هي الآن في نطاق الإعداد من قبل أساتذة اختصاصيين في النقد الأدبي والبحث، وهذا هو بالذات ما جعل الدراسة هذه تميل باطراد نحو الصيغة الوثائقية، إذا جاز التعبير، أكثر بكثير مما حرصت على الصنعة التحليلية.

وبعد،

إن ما يهم هذه الدراسة، في الأساس، هو أنها تحاول تقديم وثيقة أخرى للأدب الفلسطيني المقاوم بعد الوثيقة الأولى التي

Twitter: @ketab_n

جاءت قبل ثلاث سنوات في كتاب «أدب المقاومة في فلسطين المحتلة»، فإذا حققت ذلك فإنها لا تطمع إلى شيء آخر.

بيروت في ١٥ نيسان/أبريل ١٩٦٨

غسان كنفاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الوضع الثقافي
لعرب فلسطين المحتلّة

يقول فوزي الأسمر، وهو كاتب عربي من فلسطين المحتلة:

«بينما كنت جالساً أتناول وجبة غدائي في أحد المطاعم بتل أبيب، استمعت بالصدفة إلى مكالمة تلفونية، كان المتكلم شاباً عربياً من إحدى قرى المثلث، علمت فيها بعد أنها أم الفحم.»

– آلو، فاعد هبوعيل[1]؟ أعطني من فضلك السيد قصاب من الدائرة العربية، آلو (كل المحادثة بالعبرية) سيد قصاب؟ مرحباً، أحمد يتكلم، هل تسلمت رسالتي؟ إنني متأسف جداً، لقد كتبتها بالعبرية وطلبت من الأخ قاسم ترجمتها للعربية، متأسف، لقد أنهيت مدرسة عبرية ثانوية ولا أعرف الكتابة بالعربية، لذا طلبت منه ترجمتها.

ويمضي الكاتب قائلاً:

«مكالمة خاطفة تحمل في طياتها الكثير، وأنا هنا لا أضع

---

(١) لجنة العمال.

Twitter: @ketab_n

مسؤولية عدم تعلم العربية، لغة أم محمد على عاتق أحمد وحده، بل على عاتق أحمد نفسه، ألا يخجل من نفسه؟ إننا لا ننكر أن هنالك محاولة من السلطات لبلبلة الجيل العربي الناهض، ولكن أين المسؤولية التي تقع على عاتقه هو؟ إنني أتوجه إلى أحمد هذا وكل أحمد آخر في نفس الحالة أن يسارعوا في تعلم لغة أمهم.. وإلا...»[٢]

ذلك المقطع يعطي لمحة سريعة، ولكنها جارحة حتى العظام، عن نوع فذ من النضال الثقافي الذي يخوضه عرب الأرض المحتلة،[٣] منذ عام ١٩٤٨، للدفاع عن لغتهم وثقافتهم وتراثهم، وفي الواقع

---

(٢) فوزي الأسمر، «هذا العالم» «هعولام هزه» مجلة أسبوعية تصدر بالعبرية، العدد ٣٩ (حزيران/يونيو ١٩٦٧).

٣) من المفيد ها هنا تسجيل إحصاءات هامة عن عرب الأرض المحتلة يمكن أن تشكل خلفية البحث القادم، وتساعد على فهمه، وهذه الإحصاءات مأخوذة من كتاب «إسرائيل اليوم» من منشورات الهستدروت، تحرير يهودا غوثهلف (عام ١٩٦٧) وقد استقاها بدوره من «هامزراح هاحداش»، ص ٢٣:

يوجد حوالي ٣٠٠ ألف عربي في الأرض المحتلة (حوالي ١١ في المئة من السكان) ٦٩ في المئة منهم مسلمون، ٢٢ في المئة مسيحيون، ٩ في المئة دروز. نسبة التوالد بين العرب عالية جداً، وحسب احصاءات ١٩٦٣، كان نصف السكان العرب أعمارهم أقل من ١٥ سنة و٧٥ في المئة من السكان العرب في إسرائيل تحت سن الثلاثين، ٢٠ في المئة تحت سن الأربع سنوات. ثلاثة أرباع العرب في إسرائيل يعيشون في القرى، ٦ قرى منها سكانها فوق الـ ٥ آلاف نسمة، يوجد ٢٧ ألف عربي في الناصرة، ٨ آلاف في شفا عمرو، ٥٩٠٠ في تل أبيب ويافا، ١٠,٧٠٠ في حيفا، ٧٢٥٠ في عكا، ٢٥٠٠ في الرملة، ١٨٥٠ في اللد. ٦٠ ألف رجل عربي، و٩ آلاف امرأة عربية يشكلون قوة عاملة يدوية في المدن الإسرائيلية. نصف العرب الذين يعملون كأجراء يعملون خارج مراكز سكناهم.

Twitter: @ketab_n

فإن المعركة هذه تمثل واحـدة من أبشع وسائل الاستعمار الإسكاني في سحق الحركة الوطنية ومحاولة اجتثاثها من جذورها. وكي ندرك فعلاً ما هي قيمة أدب المقاومة الفلسطيني في فلسطين المحتلة، من خلال النتاج الذي أعطانا في العشرين سنة الماضية، لا بد من إدراك حجم المصاعب التي تشكل التحديات اليومية في الحياة الثقافية العربية في الأرض المحتلة.

ثمة إعلان فاضح، يشكل اعترافاً مثيراً للدهشة، في هذا النطاق، على لسان إسرائيلي مثقف، خلال مناقشة مفتوحة مسجلة. يقول:

«أعتقد أن الكيان القومي هو فوق كل اعتبار، حتى فوق الاعتبارات الخلقية. إن وجود أقلية عربية في إسرائيل يشكل أكبر خطر عليها، إذا لم يكن الآن وفي هذا المستقبل ففي المستقبل البعيد، وحتى نمنع وقوع مثل هذا علينا أن نعمل كل شيء بشكل لا يثير الاحتجاجات العالمية، علينا أن نجد لذلك غطاء ملائماً وعبارات جميلة، ولكن إذا لم يكن بد من ذلك، علينا أن نتجاهل الرأي العام.

علينا أن نقصر خطواتهم، وأن نأخذ أراضيهم، كل عربي ينهي المدرسة الثانوية أو الجامعة لا نعطيه عملاً وليبحث عن عمل

Twitter: @ketab_n

خلال ثلاث أو أربع أو خمس سنوات حتى ييأس ويفهم أنه لا مكان له في هذه البلاد وليبحث عن بلاد أخرى، علينا أن نقنع العرب بعدم سماع الراديو العربي، علينا أن نقطعهم عن الثقافة العربية ونضعهم تحت تأثير الثقافة اليهودية.

– وماذا سيحدث إذا ما قرروا الاستمرار بسماع الراديو المصري؟ واذا لم يفهموا الإشارة ويغادروا البلاد، ما العمل؟

– سيفهمون، وسيهاجرون.

– وإذا رفضوا التخلي عن شخصيتهم الثقافية القومية، أو رفضوا الهجرة؟

– لا. سيفهمون!

– كن جريئاً وقلها بصراحة: علينا أن نقيم أويشفتز!»(٤)

وليس في هذا الجدل تصور نظري، فهو في الواقع تعبير عن حقيقة تمارس ممارسة يومية، لقد بات من المعروف «أن المستوى التعليمي في المدارس العربية أضعف منه بكثير في المدارس اليهودية، وكذلك فصل المعلمين الأكفاء وتعيين معلمين أنهوا المدارس الابتدائية فقط مكانهم.»(٥)

---

(٤) «هذا العالم»، العدد ٣٨ (أيار/مايو ١٩٦٧). و«أويشفتز» هو معسكر اعتقال نازي في بولونيا شهد عمليات قتل جماعية بالغاز لليهود.

(٥) شالوم كوهين، المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

إن سياسة التجهيل المتعمد هي سمة بارزة من سمات الاضطهاد الثقافي الصهيوني لعرب الأرض المحتلة، وفي هذا النطاق تبرز مسألة التعليم وانخفاض مستواه في الوسط العربي كشيء أساسي.

يعترف ز. آران في مقال له بكتاب «إسرائيل اليوم»[6]: إن «٥٣ في المئة من المعلمين العرب في إسرائيل غير مؤهلين.» ويقول م. أساف في الكتاب نفسه[7]: إن «عدم توفر أساتذة وكتب وتخطيط بالنسبة للمدارس الثانوية العربية في إسرائيل يؤدي إلى إخفاق كبير في امتحانات الثانوية (المتركيوليشن)»، وأن المجتمع اليهودي لم يستطع «امتصاص المتخرجين العرب من المدارس الثانوية، ولا طلاب الجامعات العرب»، وأنه يوجد «مشكلة أكبر بالنسبة للعرب الذين يضطرون لترك دراستهم الثانوية.»

ويعترف أساف بأن نسبة تخرج العرب من الجامعات في إسرائيل نسبة منخفضة، إلا إنه لا يورد أرقاماً، ومع ذلك فبوسعنا أن نتصور هذه النسبة حين يصل إلى اعتراف أخطر في قوله أن مجموع الطلاب العرب في الجامعات في إسرائيل، عام ١٩٦٧، كان ٢٠٠ طالب فقط (مقابل ١٩ ألف إسرائيلي).

---

(٦) غوثهلف، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١.

(٧) المصدر نفسه، ص ٤٧.

Twitter: @ketab_n

وعلى أي حال لدينا إحصاء مروع آخر: «فمن الجيل العربي الذي بدأ التعليم في الصف الأول سنة ١٩٥٧، ترك المدرسة ٤٥ في المئة منهم في سنة ١٩٦٤، أي قبل أن ينهوا الصف الثامن.»[٨]

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للمدارس الابتدائية فإن الوضع لا بد أن يكون أقسى بكثير في المدارس الثانوية والجامعية. فأساف يقول إن ١٠ في المئة فقط من العرب الذين تقدموا لامتحانات الشهادة الثانوية عام ١٩٦٤ نجحوا، أما في عام ١٩٦٣ فقد كان الناجحون ١٢ في المئة.[٩]

ومن الواضح أن هذا الرقم خادع، ففي حين تقول مصادر أخرى، إن هذه النسبة لم تكن أبداً أكثر من ٤ أو ٥ في المئة، سنرى أن ز. آران يقول إن نسبة نجاح المرشحين لامتحانات الشهادة الثانوية بين العرب في إسرائيل كانت عام ١٩٦٣ ما نسبته ٤٠,٢ في المئة.[١٠]

إن الذي يثبت خطورة هذه المسألة هو أن أساف وآران يوردان رقمين متباينين جداً عن نسبة نجاح العرب في الثانوية في

(٨) أحمد الخطيب، صحيفة «الاتحاد» (وهي صحيفة بالعربية يصدرها الحزب الشيوعي في إسرائيل)، تل أبيب، ٢٩ آذار/مارس ١٩٦٨.

(٩) غوثهلف، مصدر سبق ذكره ص ٤٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢١.

Twitter: @ketab_n

إسرائيل، في سنة واحدة، في كتاب واحد!

سنجد، بالإضافة لذلك كله، وصفاً موجزاً، ولكن قاطعاً، للأوضاع التعليمية لعرب فلسطين المحتلة، يعطي فكرة شبه كاملة عن حقيقة هذه الزوضاع.

تقول منظمة «الأرض» في إسرائيل، في مذكرة بعثت بها إلى يوثانت في مطلع سنة ١٩٦٤:[١١]

إن نسبة التعليم المرتفعة في ظل الانتداب انخفضت إلى الحضيض خلال الست عشرة سنة الماضية، إن نسبة النجاح في شهادة المتركيوليشن (باغروت) في المدارس العربية الخاضعة لإشراف وزارة التربية هي فقط ٤ أو ٥ بالمئة.

إن هذا الانخفاض يعود إلى الأسباب التالية:

١- التدخل المؤذي والوقح في شؤون التعليم من قِبل رجال الحكم العسكري والمباحث (شين بت)، ولهاتين الفئتين، الحكام العسكريين ورجال المباحث، الكلمة الأولى في اختيار «المدرسين» دون أدنى نظر لكفاءاتهم العلمية، إنهم يُختارون بناء على مقدار ما يقدمون من خدمات للحكم العسكري وللمباحث، ويفترض فيهم

---

(١١) نص المذكرة نشرته كاملاً مجلة «فلسطين»، «ملحق المحرر» (بيروت)، ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٦٥، وأشارت إليها «المجلة الديمقراطية» صوت القوة الثالثة في إسرائيل في عددها بتاريخ ١٤/٩/١٩٦٤.

Twitter: @ketab_n

أن يكونوا ممالئين، متواطئين، وأبواق دعاية للحزب الحاكم.

٢- عدم وجود مدارس كافية، فالبرغم من الازدياد المطرد في عدد التلاميذ فإن عدد المدارس لا زال محدوداً جداً، إن وزارة التربية تتجاهل عن عمد تنفيذ قانون التعليم الإجباري بالنسبة للأقلية العربية.

٣- النقص الشديد في الكتب المطلوبة والمختبرات والتجهيزات والخرائط والمكتبات.

٤- هنالك بعض الموظفين المسؤولين الذين يستغلون وظائفهم فيقومون بنشر بعض الكتب المتدنية، هادفين الربح من ناحية، وتسميم عقلية الجيل الجديد من ناحية أخرى.

٥- هناك خمس مدارس عربية ثانوية في إسرائيل، واحدة منها فقط (في الناصرة) تدرس العلوم... إن سياسة الحكومة السلبية بالنسبة للثقافة العربية ترمي إلى محو أي ارتباطات بين الجيل الجديد وبين ماضيهم المجيد، لتخمد كل مشاعرهم القومية وآمالهم في مستقبل مشرق.

وفي الحقيقة، فإنها تقدم لهم بديلين أحلاهما مر: «إما الهجرة، وإمّا الانصهار!»

إن هذا المقطع في مذكرة «جماعة الأرض»، المتعلق بأوضاع

Twitter: @ketab_n

الثقافة العربية، لا يلخص فقط الوسائل الفاشية التي تتبعها إسرائيل لسحق الوعي الثقافي العربي، ولكنها تلقي ضوءاً، من ناحية مقابلة، على الصمود العربي، وعلى النضال في سبيل تفويت هذه المؤامرة.

لقد كانت هذه المسألة محل اهتمام عربي متواصل ومستمر في فلسطين المحتلة، وهذا الإصرار على رفض خطة التجهيل الإسرائيلية هو الذي يدفع م. أساف ليكتب:[١٢]

«فيما يتعرض الجيل العربي الجديد إلى تأثيرات مناوئة لإسرائيل، فإن الجيل الأكبر متمسك بالماضي، والطرفان ما زالا على صلة يومية بالدول العربية واللاجئين من خلال الراديو والتلفزيون.»

ومع ذلك تمضي إسرائيل عن عمد في حرمان العرب من حق العلم. ومن المعروف أيضاً أن عدة كليات علمية في الجامعات الإسرائيلية محرّمة نهائياً على الطلاب العرب، وهذا ما يدفع محمد دسوقي للتأكيد بأن «التعليم العربي في إسرائيل لا يمكن أن ننتظر منه أية فائدة»، ويلاحظ أن الكتب ووسائل التعليم والمعلمين الأكفياء غير متوفرين، وأنه يوجد تمييز بين الطلاب العرب واليهود في التعليم العالي.[١٣]

---

(١٢) غوثهلف، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.

(١٣) المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

وبعد الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية في حزيران/يونيو ١٩٦٧، لاحظ أحد المربين الفلسطينيين في الضفة الغربية قائلاً:[١٤]

«إنني أسمح لنفسي بعد خدمة ربع قرن في التعليم أن أقول أن مستوى المدارس العربية في إسرائيل منخفض جداً، وإن المادة التي يلقنها الأساتذة للطلاب العرب مادة تافهة. لقد طلبت من أحد أقاربي أن يحضر لنا بعض الكتب التي تدرس في المدارس العربية بإسرائيل، واطلعت على بعض الدوسيهات، وعليه بنيت رأيي أن ما يدرس للطلاب العرب ما هو إلا نوع من التجهيل (خصوصاً الأدب العربي والتاريخ العربي) وسوف لن نقبل هذه البرامج عندنا.»

وفي نفس المصدر يؤكد أحد المعلمين في القدس العربية الشيء ذاته في حديث آخر: «إذا كانت إسرائيل ترى من واجبها تعليم الطلاب التاريخ الصهيوني فنحن غير مضطرين لذلك.. لقد اطلعت على قسم من البرامج وأعتقد أنني سأكون خائناً لقوميتي وشعبي إذا قمت بتدريس هذه البرامج.»

وهذه الحقيقة، أي خطة التجهيل المتعمد الذي يهدف إلى إرساء استعمار من نوع اقتلاعي، تستدرج بدورها إجراءات قمعية إسرائيلية من نوع آخر، تتبدى في محاربة المعلمين العرب

(١٤) «هذا العالم»، العدد ٤٢ (أيلول/سبتمبر ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

وتشريدهم ومنعهم من العمل ووضع سوط التهديد على رقابهم.

ففي آذار/مارس ١٩٦٧، ألقى إسرائيلي يدعى غديش، يشغل منصب المسؤول عن التعليم العربي في إسرائيل، محاضرة في نادي المعلمين في حيفا، ووجه إلى «المعلمين القدامى» الذين دعوا للاستماع إليه تهديداً مباشراً: «على المعلمين القدامى ألا يعتقدوا بأنهم ثابتون كالمسمار الذي لا طبعة له، أنا سأعمل للمسمار طبعة، وإذا لم أقدر فسأحفر حوله وأقلعه.»[١٥]

«فالمعلمون القدامى» يشكلون في الواقع جسراً شديد الأهمية في الحياة الثقافية العربية في فلسطين المحتلة، فهم ضمانة استمرار ذلك التيار من الوعي العربي والاطلاع على مناهج التعليم قبل الاحتلال الإسرائيلي، ومن هذه الناحية فهم يشكلون بالنسبة لإسرائيل مشكلة يشبّهها غديش بأنها مشكلة المسمار الذي لا طبعة له، بحيث يستحيل استلاله وقلعه من مكانه!

ولا تكتفي السلطات الإسرائيلية بالطبع بهذا الأسلوب «السلبي» في محاولتها لنسف الجذور الثقافية العربية، ولكنها تلجأ إلى أسلوب «إيجابي» مواكب لخطتها، يتبدى في محاولات حقن المجتمع العربي في فلسطين المحتلة بسموم الثقافة الهجينة، والتفاهة التي

---

(١٥) «الغد» مجلة بالعربية يصدرها الحزب الشيوعي شهرياً، العدد ٢ (آذار/مارس ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

تهدف إلى إفقاد ثقة العربي بقيمة ثقافته وبآفاقها وجذورها.

ففي كانون الثاني/يناير ١٩٦١ وزع منشور عربي في إسرائيل، أصدره الشيوعيون العرب، يتهم «شركة الكتاب العربي» التي يشرف عليها حزب العمال الإسرائيلي الموحد (المبام) بأنها «تنزل إلى الأسواق، دون حساب للتكاليف، مجلات وكتباً باللغة العربية لا هدف لها سوى إغراق شبابنا في مستنقعات العدمية القومية والعدمية الجنسية.»[١٦]

وفي الشهر ذاته ألقى موشيه بيمنته الإسرائيلي، محاضرة في الجامعة العبرية في القدس بعنوان «اللغة والأسلوب في الأدب العربي الحديث» دعا فيها بإصرار إلى استعمال اللهجة العامية في الكتابة الأدبية ونبذ العربية الفصحى ونسيانها،[١٧] ولم تكن هذه الدعوة إلا تكملة لمخطط مقصود ومدروس. فجمال قعوار، وهو شاعر وكاتب من فلسطين المحتلة، يكشف هذا في قوله: «كلما حاولت السلطات أن تستخلص أدباً ما من مأجوريها كانت تصطدم بالابتعاد من قبل الأوساط العربية، لأن مضمونه بعيد عن أية آمال

(١٦) «الفجر» مجلة أدبية سياسية شهرية، كان يصدرها حزب المبام، توقفت عن الصدور عام ١٩٦٢)، العدد ٢، السنة ٣ (شباط/فبراير ١٩٦١).

(١٧) ناقشه فوزي الأسمر بعنف معتبراً الدعوة وسيلة هدم مقصودة. المصدر نفسه، ص ٦-٧.

Twitter: @ketab_n

لأبناء الشعب العربي هنا، حيث يبثّ الروح العدمية بين الجماهير العربية ويكبت الروح التقدمية العربية.»[١٨]

ومثل هذا الصدام الصامت، ولكن المروع، لا يمكن له أن يقف هنا، وهذا هو التفسير الوحيد لعمليات القمع والاعتقال والإقامة الجبرية، وأحياناً القتل، التي يتعرض لها الجيل الشاب المثقف في فلسطين المحتلة.

ففي ٢٧ كانون الثاني/يناير ١٩٦٧ قتل جنود إسرائيليون الشاب العربي محمد خليل الزعبي (٢٨ سنة) من قرية سولم قضاء الناصرة في فلسطين المحتلة، «كان المذكور قد أنهى دراسته الثانوية منذ حوالي عشر سنوات قضاها في البحث عن عمل، ولكنه لم يتوفق إلى ذلك.. . كما هي الحالة عند معظم الخريجين العرب».[١٩]

وقد قتل الشاب الزعبي من قِبل دورية إسرائيلية أثناء محاولته قطع الحدود إلى غزة، و«لم ينشر أي بيان رسمي عن حادث القتل المذكور.»[٢٠]

---

(١٨) «هذا العالم»، العدد ٣٦ (آذار/مارس ١٩٦٧).

(١٩) المصدر نفسه. (وعلى سبيل المثال أيضاً: في أواخر ١٩٦١ قتل الإسرائيليون خمسة من الشبان العرب لا يتجاوز أكبرهم الـ ١٨ من عمره، أثناء محاولاتهم عبور الحدود إلى غزة في محاولة لاستكمال دراستهم، بينهم: ريمون حنا، وجورج ناصر شاما، وجريس بادين من وادي النسناس في حيفا، وفايز أحمد السبع من سخنين.

(٢٠) المصدر نفسه. ويبدو أن عمليات من هذا النوع تتكرر على نفس الطريقة وعدة

Twitter: @ketab_n

تقول عريضة «القوة الثالثة» التي قدمها إلى المحكمة م. شتين، رئيس الحركة (وكما هو متوقع قوبلت بالإهمال، وحفظت القضية):

«وكما يعرف جنابكم (الكلام موجه لهيئة المحكمة) فإنه يتبع ضد عرب هذه البلاد أساليب التمييز المختلفة، وأكثرهم شعوراً بذلك هم المثقفون لأن كل المكاتب الحكومية والعامة مغلقة في وجوههم.. . لذلك لا يستغرب أن يحاول الشاب العربي الذي افتقد كل أمل في الحصول على حياة ملائمة دخول أي بلد عربي ولو اضطر في ذلك إلى مخالفة قوانين الدولة وقوانين الدول العربية على السواء.»[٢١]

ومن الواضح أن عمليات قتل من هذا النوع تتكرّر بشكل أو بآخر، ويعلن عنها تحت هذا العنوان أو ذاك، ولكن نظرة خاطفة على الأنباء العادية لن يكون من شأنها إلا أن تثير المزيد من الشك، وما زال القراء العرب يذكرون النبأ الذي روى قصة مقتل طالب عربي شاب «بعد أن قفز من القطار أثناء إجازته الجامعية قرب

مرات، لأن النبأ استخدم جملة «مقتل شاب عربي آخر»، والواضح أنه لم يكن يحمل سلاحاً.

(٢١) المصدر نفسه. وأيضاً في «المجلة الديمقراطية»،(تل أبيب)، (١٩٦٧/٣/١٢).

Twitter: @ketab_n

الحدود الأردنية فسقط تحت العجلات وقتل!»[٢٢]

ولكن عمليات البطش والإرهاب لا تقتصر على ذلك، وهي ليست من ناحية أخرى في حاجة إلى إثبات، ويستطيع القارئ للصحف الإسرائيلية أن يجد كل ما يريده من البراهين مختبئاً هنا وهناك.

فـ «عندما استيقظ الطالب الجامعي يوسف عزيزي (٢١ سنة) صباحاً ليدرس لامتحاناته، وجد رسالة تهديد تنتظره وهي مرسلة من منظمة سرية لقبها أعضاؤها بمنظمة ش.ش. ويوسف، ابن قرية كفر كنا، يسكن في بيوت الطلاب في قرية الجامعة العبرية في القدس، وقد طلبت الرسالة منه أن يكتب اسمه باللغة العبرية إلى جانب اللغة العربية على الوريقة المعلقة على باب غرفته وإلا.

«وصف أعضاء المنظمة المذكورة أنفسهم بأنهم ذوو أياد طويلة ووحشية وقد أعطي يوسف مهلة ليوم واحد لتلبية أوامر المنظمة وإلا..» [٢٣]

وقد يكون هذا النبأ عادياً لو لم نتابع من خلاله كيف لقيت

---

(٢٢) اسمه بدران جميل مشعل وهو من شفا عمرو وقد وقع الحادث في كانون الأول / ديسمبر ١٩٦٥. كشف النقاب فيما بعد أنه كان عضواً في «حركة الوحدة العربية» الطلابية السرية، وقد ذكر أنه تعرض لتعذيب وحشي قبل «الحادث» المزعوم - راجع القصة كاملة في «فلسطين»، «ملحق المحرر» (بيروت)، ١٩٦٦/١/١٣.

(٢٣) «هذا العالم»، العدد ٤٢ (أيلول/سبتمبر ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

شكوى يوسف المذكور، إلى إدارة الجامعة وإلى مركز الشرطة، إهمالاً لا نظير له، اقترن بالمماطلة والكذب، ووعده قائد المباحث بأن يتابع المشكلة ولكنه أعطاه رقم هاتف وهمياً، وكان مدير السكن الإسرائيلي قد هدده بالطرد إذا شكا للشرطة..

والنهاية التي تتوج هذه القصة وتعطيها معناها هي أن يوسف اضطر بالفعل لترك غرفته بالجامعة، رغم كل الشكاوى التي قدمها.

إنه من السهل الاستنتاج بأن طالباً جامعياً ليس مضطراً لترك دراسته لو لم يكن يعرف بأن «تجارب سابقة» أثبتت خطورة مثل هذه الحالة وجديتها.

إن الحرب النفسية والاقتصادية والسياسية والبدنية التي تشنها السلطات الإسرائيلية على الثقافة العربية والمثقف العربي كان لها الأثر الأكبر في بلورة الإنتاج الأدبي العربي في فلسطين المحتلة على الصورة التي سنراها، ومن ذلك اللجوء غالباً إلى الرمز، ولم يحدث هذا اللجوء إلا لأن تفسيره «موجود في أكثر من سجن واحد، وفي فصل أكثر من معلم عربي واحد.»[٢٤]

وقد وصل هذا القمع في أبشع صوره وأكثرها اتساعاً وقسوة، في حزيران/يونيو ١٩٦٧، فقد تلقى مئات من المثقفين العرب

---

(٢٤) المصدر نفسه، العدد ٣٦ (آذار/مارس ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

أوامر تحديد الإقامة[٢٥] بناء على المادة (١٠٩) من قانون الطوارئ الإسرائيلي والمعمول به بالنسبة للعرب منذ سنة ١٩٤٨ إلى الآن.

ولأن المادة (١٠٩) المذكورة تشكل قضية يومية في حياة العرب في الأرض المحتلة، فإنه من الجدير تسجيل نصها زيادة في إيضاح الصورة:

المادة (١٠٩)

يحق للآمر العسكري أن يصدر بالنسبة لأي شخص أمراً بخصوص جميع أو بعض الغايات التالية:

أ- لكي يؤمن، ما عدا في الحالات المبينة بالأمر أو من قِبل سلطة أو شخص حسب ما هو مبين بالأمر، أن ذلك الشخص لن يسمح له أن يكون بأية منطقة في إسرائيل، كما هو مبين.

ب- أن يفرض عليه الإبلاغ عن تحركاته بالطريقة وفي الأوقات وللسلطة أو للشخص كما هو مبين في الأمر.

ج- أن يمنع أو يحدد ترخيص أو استعمال أية أداة من قِبل أي شخص كما هو مبين.

د- أن يفرض عليه أية تحديدات كما هو مبين في الأمر بالنسبة لشغله أو عمله أو بالنسبة لارتباطاته أو اتصاله مع أشخاص آخرين

---

(٢٥) المصدر نفسه، العدد ٢٤ (أيلول/سبتمبر ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

وبالنسبة لأفعاله بما يخص نشر الأخبار أو الدعوة لآرائه.

مما لا شك فيه أن قانوناً مثل هذا لا يمكن أن يمارس في أعتى دول العالم عنصرية وفاشستية، ومع ذلك فإن قراءة أخرى له تظلّ ضرورية، فهدفه ليس الحفاظ على أمن مزعوم بقدر ما هو محاولة لإلغاء الإنسان.

إن هذه المادة جزء أساسي في حياة عرب الأراضي المحتلة، وخصوصاً بالنسبة للمثقفين، ويندر أن تسمع عن أديب أو شاعر أو كاتب عربي في إسرائيل لم يتلق مثل هذا الأمر بين الفينة والأخرى.

وفي الوقت الذي كان عشرات من المثقفين العرب في إسرائيل يتلقون هذه الأوامر في حزيران/يونيو الماضي (بالإضافة إلى مئات من العرب الوطنيين البارزين) كانت دوريات من الشرطة الإسرائيلية تجمع عشرات من الأدباء والشعراء العرب في فلسطين المحتلة، وتودعهم السجون.

ومن بين أولئك الذين سيقوا إلى السجن في مطلع حزيران/يونيو ١٩٦٧ السادة: منصور كردوش، وصالح برانسي،[٢٦] وفخري

---

(٢٦) ولد في قرية الطيبة قضاء طولكرم عام ١٩٢٩ ودرس في كلية النهضة بالقدس حيث أنهى دراسته الثانوية فيها عام ١٩٤٧. من الشباب الذين أسسوا حركة «الأرض» وتعرضوا لملاحقات السلطات المحتلة فترة طويلة. سجن عدة مرات وهو يقيم الآن في «المنفى» داخل إسرائيل، إقامة جبرية. وله عدة مقالات جريئة.

Twitter: @ketab_n

جدي، والشاعر حبيب قهوجي،[٣٧] والشاعر سميح القاسم، والشاعر محمود درويش، والشاعر سالم جبران، والشاعر توفيق زياد، والمحامي والكاتب صبري جريس (مؤلف: «العرب في إسرائيل»)، وعبد الحفيظ دراوشة، والأديب فرح نور سلمان، وعلي رافع، ومحمد خاص، وعلي عاشور، والطالب الجامعي خليل طعمة،[٢٨] ومحمد ريان، وزاهي كركبي، ومنعم جرجورة، ونصري المر، وجورج غريب، وفؤاد خوري... وغيرهم.[٢٩]

وحين أطلق سراح بعض هؤلاء فيما بعد «ثبتهم» الحاكم العسكري بأوامر تحديد الإقامة، والإقامة الجبرية!

لقد جدد أمر الإقامة الجبرية على صالح برانسي «وبمقتضاه يمنع من مغادرة بيته في الطيبة بعد غروب الشمس بساعة وحتى

---

(٢٧) من عكا، ومن جماعة «الأرض» ومؤسسيها، له عدة قصائد ألقاها في مهرجانات تظهر وعياً عربياً جريئاً. لوحق وسجن وأقام فترة في المنفى وفرضت عليه الإقامة الجبرية، وأوقف هو وزوجته توقيفاً كيفياً في حزيران/يونيو ١٩٦٧. استمر توقيفه دون سبب حتى أول حزيران ١٩٦٨، ثم خير بين أن تنزع جنسيته الإسرائيلية ويطرد إلى الخارج وبين أن يبقى في السجن حتى «تحل قضية فلسطين نهائياً»، فاختار أن يطرد. مقيم الآن خارج إسرائيل مع زوجته.

(٢٨) برز اسمه، كأحد ممثلي المثقفين الوطنيين العرب في الأرض المحتلة، مؤخراً، ألقي القبض عليه بتهمة إيواء المقاوم الفلسطيني أحمد خليفة في بيته، وكان قد ألقي القبض عليه قبل ذلك أثناء عدوان ٥ حزيران/يونيو. طالب في كلية الحقوق في الجامعة العبرية، والأمين العام لمنظمة الطلبة العرب فيها.

(٢٩) «هذا العالم»، العدد ٤٠ (تموز/يوليو ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

شروقها بساعة، كما أن عليه، بمقتضى هذا الأمر، أن يثبت وجوده مرة في اليوم في مركز الشرطة في بلدته.. هذا وقد تلقى البرانسي هذا الأمر قبل سنتين، وهو ما يزال يجدد كل ثلاثة أشهر.»[٣٠]

وكذلك جددت الإقامة الجبرية على عدد كبير من المثقفين والأدباء العرب في فلسطين المحتلة، ومن بينهم الشاعر محمود دسوقي، وصليبا خميس، والشاعر سالم جبران، وعثمان أبو راس، وزاهي كركبي، وعبد العزيز أبو أصبع، وهشام حافظ إجاره.. «ومئات غيرهم.»[٣١]

ولم تكن الاعتقالات هذه جديدة، كما يظهر بالنسبة للبرانسي، فنحن نعرف مثلاً أن منصور كردوش وحبيب قهوجي منفيان منذ ثلاث سنوات على الأقل ومفروض عليهما الإقامة الجبرية في القرى المبعدين إليها.

ورافقت هذه الاعتقالات والاحتجازات عمليات عنف وضرب وتعذيب كانت جزءاً مكملاً من المخطط، «فبعد نشوب الحرب بيومين (٧ حزيران/يونيو) أخذت سيارة الشرطة في قرية الطيبة تجوب الشوارع وتنقل بعض الشباب إلى المركز لتدخلهم إلى

(٣٠) المصدر نفسه، العدد ٤١ (آب/أغسطس ١٩٦٧).

(٣١) المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

غرفة علقت على بابها لافتة كتب عليها «غرفة التأديب». وفي هذه الغرفة كانوا يهانون ويضربون ضرباً مبرحاً دون الإدلاء بالأسباب.. لقد ثبت بصورة قاطعة أن الذين كانوا يقومون بالتعذيب كانوا خليطاً من رجال الشرطة وبعض المدنيين الذين ينتمون إلى سلك آخر»[٣٢] - (يقصد المباحث العسكرية).

يصف الشاب خليل طعمة ما حدث له في المعتقل في مطلع حزيران/يونيو ١٩٦٧، وهو صورة لما حصل للأدباء والمثقفين العرب الذين اعتقلوا في الفترة ذاتها، في تقرير مفصل:

«أُمرت أن أغادر القدس في حين كنت أستعد للامتحانات آخر السنة، إلى منطقة قريتي الرامة، وفي ٥-٦، أثناء استماعي لأخبار الساعة العاشرة، دخل الشاويش رقم ١٣٢٢٥ والمعروف عندنا بـ (أبو سرور) وفي يده مدفع رشاش عوزي، وأمرني أن أذهب معه إلى مركز الشرطة في كرمئيل، وحجزوني حسب المادة (١١١). أخذوا مني دفتر العناوين، وفجأة سمعت صوتاً يقول: هذه عناوين ناصر. هه، سوف نرسلك إليه الآن، لقد حلّت نهايتكم وسوف نحصدكم كما تحصد طائراتنا من القنطرة حتى السويس.

واستمر أبو سرور طيلة يومين في إهانتي، وكان يكرّر دائماً:

(٣٢) المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

أريد أن أشرب كأساً من دمك. ويقول: البروفيسوريم البهائم الذين يعلمونكم كيف تكرهون الدولة... مارتن بوبر القذر هذا!

ثم أخذوني إلى مركز عكا، وعندما دخلنا وجه أبو سرور حديثه إلى بعض أفراد الشرطة الجالسين وقال: انظروا هذا المثقف الذي يدرس الطب كي يسمم الماء في إسرائيل! وأنهى كلامه بلكمة قوية على وجهي مما دفع الآخرين، وعددهم حوالي عشرة، أن يهجموا عليّ وينهالوا ضرباً ولكماً حتى سال دمي ووقعت مغشياً عليّ، ومع ذلك فقد صحوت على أبو سرور وهو ينهال ضرباً بحذائه على جميع أعضاء جسمي، وما تزال علامات الضرب إلى الآن (آب/ أغسطس ١٩٦٧) واضحة على جسدي.»[٣٣]

ورافق هذا «التعذيب الرسمي» سلسلة من «الاعتداءات الشعبية»، فقد كاد يهود نتانيا يقضون على قاسم عبد القادر، وهو مدير مدرسة أبو ربيعة في صحراء النقب حين ظفروا به في الشارع.[٣٤] وقد ظلت هذه المدينة مغلقة في وجوه العرب (وخصوصاً سكان قريتي الطيبة وقلنسوة الذين يعملون فيها) عدة شهور بعد ذلك الحادث.

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

وربما كانت قصة الشاعر حبيب قهوجي نموجاً لما يحدث للمثقف العربي في فلسطين المحتلة، فقد اعتقل في الخامس من حزيران/يونيو، ووجهت له تهمة «التجسّس»، وبعد شهور قليلة اعتقلت زوجته ووجهت لها نفس التهمة، ومع ذلك «فقد اقترحت السلطات الإسرائيلية على الزوجين الاعتراف مقابل السماح لهما بمغادرة البلاد، إلا إنهما رفضا الاقتراح بشدة.»[٣٥]

وفي موعد محاكمتهما فوجئ محاميهما بأنهما لم يحضرا، «وعندما اتصل بالشرطة أبلغ أن الزوجين قهوجي قد اعتقلا لمدة ثلاثة أشهر أخرى بموجب أوامر إدارية.»[٣٦]وقد اشتكى الزوجان أمام اللجنة الاستشارية الخاصة بالاعتقالات الإدارية «من المعاملة البربرية التي يلاقونها»،[٣٧] ومع ذلك فإنه لم يسمح لهما بمقابلة محاميهما قبل انعقاد اللجنة[٣٨] التي لم يغير انعقادها شيئاً.

بالنسبة للأديب العربي في الأرض المحتلة فإنه يواجه المسألة بصورة مزدوجة، يقول سميح القاسم معلقاً على مؤتمر الأدباء العبريين الذي انعقد في القدس المحتلة في ١٧ نيسان/أبريل ١٩٦٨:

---

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) المصدر نفسه، العدد ٤٢ (أيلول/سبتمبر ١٩٦٧).

(٣٨) المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

«قال شيخ الأدبـاء العبريين يهودا بورلا في كلمة افتتاح المؤتمر: 'إن أدباء إسرائيل يعملون على تعميق الوعي القومي والقيم الإنسانية لدى الشبيبة ولدى الشعب'، ولم تطل فرحتنا بهذا الإعلان، فقد أتبعه فوراً بالدعوة إلى 'الاعتراف بعظمة هذه الأيام التي أعقبت حرب الأيام الستة'».

هذا الجانب من التحدي يقابله جانب آخر يجعل المشكلة مزدوجة، يتابع سميح القاسم تعليقه:

«... وينعقد مؤتمر للأدباء العبريين فلا نسمع كلمة احتجاج واحدة على الاضطهاد الفظ الذي تعرض له، وما زال، والأدباء العرب في إسرائيل نفسها. كثير من الكلام قيل حول محاكمة 'الأدباء' في 'روسيا' ولكن اعتقالنا نحن، وسوقنا في الشارع مكبلين بالقيود، والاعتداء على حرياتنا اليومية والفكرية، كتحديد إقاماتنا واعتقالنا في منازلنا وفرض الرقابة على إنتاجنا وطردنا من أعمالنا ومحاولة عزلنا عن الجماهير بموجب القوانين الموروثة عن الاستعمار البريطاني.. كل هذه الأمور لم تحظ بكلمة واحدة من مؤتمر الأدباء العبريين ذي القدسين!»[٣٩]

---

(٣٩) «الجديد» (مجلة شهرية تصدر بالعربية)، العدد ٥ (أيار/مايو ١٩٦٨)، حيفا.

Twitter: @ketab_n

◆ ◆ ◆

هذا الوضع الذي يواجهه الأديب والمثقف العربي في فلسطين المحتلة، والذي تابع بإصرار لا مثيل له تحديه طوال عشرين سنة من الاغتصاب، هل استطاع أن يزعزع ثقة العربي بجذور ثقافته وآفاقها، أو أن يحول دون شروق الأدب المقاوم الذي يتوهّج الآن كشمس متفائلة في الحياة الثقافية العربية عموماً؟

لقد كان عرب فلسطين المحتلة يدركون منذ البدء خطورة المعركة التي يخوضونها تحت سياط الحكم العسكري الإسرائيلي، ومنذ البدء عبروا عن وعيهم بالمخطط الموضوع ضدهم باختصار ولكن بعمق، في جملة موجزة تلخص كل شيء: «كل الناس في العالم يقفون على أقدامهم، إلا الحاكم العسكري فإنه يقف على أذنابه!»[٤٠]

ولم يكن هذا التعبير ليغطي التحدي السياسي الذي كان يواجهه عرب فلسطين المحتلة، بل كان يغطي أيضاً التحدي الثقافي

---

(٤٠) راشد حسين، «الفجر»، العدد ٢، السنة ٣ (كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٦١).

Twitter: @ketab_n

المبيت ضدهم، وأدى وعيهم هذا لحقيقة «التسلل من الداخل» لتسهيل عملية «الضرب من الخارج» إلى بلورة أدب المقاومة الذي كان بدوره أيضاً «صموداً من الداخِل» لتسهيل عملية «الضرب إلى الخارج».

لقد أدرك أدباء المقاومة العرب في إسرائيل هذه الحقيقة بارتباطاتها السياسية والثقافية المختلفة «فإذا لم نصوت للحزب الحاكم فنحن غير مخلصين للدولة، واذا كتبنا قصيدة أو قصة أو مقالاً تعبر عن واقعنا المرّ فنحن غير مخلصين للدولة.»[٤١]

وقد أدى ذلك إلى تطور في أسلوب التعبير تكيف في الأساس مع متطلبات «جبهة القتال» الثقافية. فقد لجأ الشاعر، مثلاً، «لإنشاد مقاصده، شعراً بواسطة الطريقة الرمزية.. فالقصيدة الشعرية هي ميدان فسيح للكتابة الرمزية، يعبر فيها الشاعر عما يخالجه من شعور قومي دون أن يفصح عن ذلك، وكم من مرة خاطب الشعراء أحباءهم قاصدين الوطن، فإذا ما كتب الشاعر في قصيدته «الويل يا ظالم..» لا يمكن للسلطات أن تعرف قصده لتتخذ ضده الإجراءات القانونية، أما القارئ اللبق فيفهم مرمى الشاعر ويحس

(٤١) فوزي الأسمر، «هذا العالم العدد ٣٦ (آذار ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

بنفس إحساساته.»[٤٢]

ولكن هذا الاندفاع في فتح الطريق أمام الأدب المقاوم لم يحدث بالمصادفة. وليست أهميته في الواقع أكثر من كونه حقق لشعر المقاومة درجة من التقدم الفني أكثر بكثير مما أتيح لفن القصة أو الرواية، ولكن الحقيقة هي أنه كان في ذاته نتاجاً لوعي عميق بمهمة الأديب والمثقف أمام التحديات الماثلة.

لقد أدت تلك التحديات الإسرائيلية اليومية إلى اختصار فترة من طفولة العمل الفني في الأرض المحتلة صرفتها حركة الأدب العربي المعاصرة في مناقشة طويلة حول مدى التزام الفن، وعما إذا كان الفن الملتزم فنّاً خلاقاً. فقد كان ثقل المؤامرة الإسرائيلية على الثقافة العربية في فلسطين المحتلة يشكل من تلقائه حلاً سريعاً لذلك الجدل، وبكلمة أخرى: لم تكن قضية الأدب الملتزم بين الغالبية الساحقة من أدباء فلسطين المحتلة موضع جدل، كان الجدل فيها – أمام التحديات اليومية الخطيرة – يشكل رفاهاً لم يقبله أحد.

يقول منصور كردوش، أحد أبرز العناصر الوطنية في الأرض المحتلة:

---

(٤٢) المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

«الفن والثقافة سلاحان إذا ما سارا على النهج الهادف رفعا من مفاهيم أمة بكاملها، أما الفن والثقافة المجردان فباعتقادي أنهما من مفاهيم عصور الإقطاع والبذخ والرفاهية السطحية، ولذلك أرى أن الواجب القومي والاجتماعي والتاريخي لكل من حمل القلم أو الفرشاة، أن يعمل في الاتجاه الهادف كي يكون صاحب رسالة سامية.»[٤٣]

والمثقفون العرب في فلسطين المحتلة، لأنهم يدركون أن «هناك عوامل تحدّ من توصيل الثقافة المحلية والخارجية إلى عامة الشعب، منها عدم إمكانية النشر ومحاربة النتاج الثقافي الهادف»[٤٤] فهم يدركون بالتالي أن «المجتمع العربي في إسرائيل يقلد المجتمع العربي الكبير في تصرفاته ويستوعب نداءاته أكثر بكثير من تقليد المجتمع اليهودي المجاور.»[٤٥] وقد أدى ذلك – بالطبيعة – إلى الاعتماد بعض الشيء على الإذاعات العربية، فهي «تبدّد هذه الوحشة على العربي (في إسرائيل) وتخفف من وطأة العزلة المفروضة عليه»[٤٦]... وهي «حلقة الاتصال بيننا وبين ما

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) المصدر نفسه.

(٤٥) محمد مصاورة، المصدر نفسه.

(٤٦) سلمان شحادي، المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

حجب عنا من إنتاج أدبي وثقافي في العالم العربي.»[٤٧] ولذلك فقد أدى «الراديو والتلفزيون العربي، لنا، خدمات جليلة»،[٤٨] إلى حد يبدو أنه عكس نفسه بقوة على كثير من الإنتاج الفني في الأرض المحتلة.[٤٩]

ويبدو أنه، في الوقت نفسه، أثار حفيظة الإسرائيليين إلى حد بعيد، فالإسرائيلي سامي ياكوف يقول: «لا أغالي إن قلت إن مصائر قسم لا بأس به من العرب قررت على ضوء تأثير تلك الأجهزة في مشاعرهم وإدراكاتهم، وهذا يقضي بوضع مخطط شامل لتوجيه أبناء الجيل الطالع التوجيه الصحيح ليصبح محصناً ضد تأثير تيارات ليست في مصلحته أبداً.»[٥٠]

إن استخدام هذه المظاهر، التي وإن بدت لأول وهلة أنها صغيرة وعابرة، في نطاق الوعي المسبق لواجبات المثقف العربي في الأرض المحتلة، قد أفرز حركة أدبية ملتزمة، انتهت إلى أن تكون علامة من أنصع علامات أدب المقاومة الشجاع في التاريخ المعاصر.

---

(٤٧) أحمد دسوقي، المصدر نفسه.

(٤٨) فوزي الأسمر، المصدر نفسه.

(٤٩) في مجلة «الفجر» العدد ٣ (أيار/مايو ١٩٦٧) مناقشة حارة بين فتحي فوراني وجمال قعوار، لأن الثاني اتهم الأول بأن عدداً كبيراً من الألفاظ التي يستعملها في قصصه «مأخوذ من الإذاعات العربية».

(٥٠) «هذا العالم»، العدد ٣٩ (حزيران/يونيو ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

وسوف نرى، بعد قليل، كيف أن ذلك كله قد استولد وجهين مترافقين لأدب المقاومة الفلسطيني ظلا معاً السمة البارزة والدائمة لهذا الأدب، وهما وجهه المحلي الصامد، ووجهه العربي الذي غنى على الدوام للمسيرة العربية معتبراً نفسه، رغم كل أشكال القمع والحصار والعزلة، جزءاً منها لا يتجزأ.

◆ ◆ ◆

لدينا، على أي حال، مثال شديد الأهمية وجدير بالتسجيل لأنه، كما سنرى، يعكس الشيء الكثير مما نقصده.

لقد أقامت مجلة «هذا العالم» ندوة في مطلع سنة ١٩٦٧ تحت عنوان «مصائب المجتمع العربي» في إسرائيل، وقد طرحت إحدى حلقات هذه الندوة موضوع «تأخر المجتمع العربي في إسرائيل» وطلبت من المثقفين العرب هنا الإدلاء بآرائهم عن أسباب تلك الظاهرة.

يعترف رئيس تحرير المجلة بعد تلقيه سلسلة من الردود: «لم نسمع المديح قط، بل النقد والهجوم، والخط الأساسي في كل هذه الهجومات كان: «شو دخلكم بهل الموضوع»، ومنهم من اتهمنا بأن هدف هذه الندوات... هو إهانة للمجتمع العربي في إسرائيل..

Twitter: @ketab_n

وإشغال العرب بمعارك جانبية.»[٥١]

لقد انتهز معظم المثقفين العرب فرصة هذه الندوة ليعبروا عن وعيهم العميق بحقيقة الإشكال الذي يعانونه والذي يتمردون عليه، لقد رفضت الغالبية الساحقة من المثقفين العرب المشاركين في الندوة طرح موضوع «التخلف العربي» من الزاوية التي يصرّ الإسرائيليون على طرحه منها، فالتقدم «لا يقاس بمقاييس الغرام والجنس، كجلوس شاب وشابة معاً في قاعة السينما»،[٥٢] وقد وضع معظم المثقفين العرب في فلسطين المحتلة مسألة التقدم والتخلف في سياقها النضالي العميق، مفوتين الفرصة على الرأي الإسرائيلي الذي يعتقد أن التقدم يبرر استعباد المتخلفين.

ولم تكن هذه الآراء، في الحقيقة، إلا التربة التي أخصبت بذور الأدب المقاوم في فلسطين المحتلة واحتضنتها بحرارة وأكسبتها المناعة التي أنتجت في المستقبل ثقة بالنفس وبالمستقبل لا حدود لها، فهي تبرهن أن الالتزام الواعي كسر القشرة البراقة للخديعة الإسرائيلية الفظة. وفوت على مزاعم التقدم الإسرائيلي فرصة استقطاب الحركة الثقافية العربية وامتصاصها.

---

(٥١) المصدر نفسه، العدد ٣٨ (أيار/مايو ١٩٦٧).

(٥٢) إدوار طعمة عيسى، المصدر نفسه.

Twitter: @ketab_n

وهذه في الواقع مسألة شديدة الأهمية والخطورة، فنحن نعرف مثلاً أنه في الكثير من الدول النامية فتح المثقفون عيونهم ليجدوا أنفسهم محاطين ببريق ثقافة أجنبية أرادت بوسائل مختلفة التوصل عبر العمل الفكري والفني إلى فرض نمط حياة مستوردة، ومما لا شك فيه أن الكثير من المثقفين هؤلاء، بين تنازع الجذور المحلية وبريق الثقافة الغربية، انخلعوا عن جذورهم وولاءاتهم وانتسبوا إلى نمط حياة أخرى.

لقد واجه المثقف العربي في فلسطين المحتلة هذا التحدي بصورة أكثر اتساعاً وقسوة، إذ إنه كان وما يزال يمثل حضوراً يومياً مسلحاً بوسائل القمع والإغراء في وقت واحد، لقد واجه الأديب العربي في إسرائيل، وهو غالباً رجل شاب قادم من الريف، سطوة التقدم الغربي وجهاً لوجه، وبريق النمط الأوروبي من الفكر والحياة، ليس على صفحات مجلة أو شاشة سينما أو سطور كتاب فحسب، ولكن في تفاصيل الحياة اليومية التي كان يخوض غمارها ساعة فساعة.

ومن هنا كان هذا التحدي يشكل درجة أكثر خطورة وسطوة بالنسبة للمثقف العربي في إسرائيل من أي مثقف آخر في العالم النامي تقريباً، لقد كان «التقدم» الإسرائيلي يشكل بالنسبة له فخاً له حضوره اليومي، المعنوي والمادي، والذي كان يفتح أشداقه

Twitter: @ketab_n

حول خطواته باستمرار.

ولذلك فإن طرح موضوع «التقدم الإسرائيلي» أمام «التخلف العربي» كان دائماً مسألة لها خطورتها ومحاذيرها، فقد كان هذا الموضوع يشكل بالبداهة السلاح الإسرائيلي الأقوى - فوق وسائل القمع والإرهاب - لمحاولة استيعاب المثقف العربي واستدراجه إلى نمط الحياة الإسرائيلية بملء إرادته.

ولكن المثير للدهشة حقاً أن الغالبية الساحقة من المثقفين العرب في فلسطين المحتلة، الذين سئلوا رأيهم بهذا الشأن، أبدوا وعياً على درجة عالية من المسؤولية التي يفرضها التزامهم العميق بقضيتهم الأولى، وقد جاءت الأحداث فيما بعد لتؤكد لعرب الأرض المحتلة صواب موقفهم حتى من الناحية الشكلية، فبعد عدوان حزيران/يونيو ١٩٦٧ «تحطمت الفكرة الفاشية التي تحاول دائماً وصم العرب واتهامهم بالتأخر، تحطمت الفكرة الصهيونية التي تقول بأن العرب في إسرائيل يعيشون على مستوى لم يحصل عليه أي شعب في أية دولة عربية، وجعلت منهم فترينة للاستهلاك الخارجي.. كل ذلك تحطم بسرعة البرق بعد أن اطلعنا على مستوى المعيشة في الضفة الغربية وفي قطاع غزة.»[٥٣]

(٥٣) المصدر نفسه، العدد ٤١ (آب/أغسطس ١٩٦٧).

Twitter: @ketab_n

ومما لا شك فيه أن بناة الستراتيجيا الصهيونية فوجئوا بلا ريب بنوع الأجوبة التي أدلى بها المثقفون العرب في إسرائيل على استفتاء «هذا العالم» حول ظاهرة «تخلف المجتمع العربي في إسرائيل بالنسبة للمجتمع اليهودي، وتقدمه بالنسبة للمجتمعات في الدول العربية.»

لننتبه جيداً إلى الفخ المروع الكامن في هذه المعادلة غير المنطقية، ليس من حيث أنها مطروحة على شكل سؤال للمثقفين العرب أنفسهم، ولكن لأنها – قبل ذلك – أحد أهم الأركان التي يقوم عليها الغزو الإسرائيلي للثقافة العربية في فلسطين المحتلة، ومجرّد وجود هذه المعادلة، مهما كانت نسبة التزوير فيها، وممارستها عملياً على مدار عشرين سنة من الاحتلال، يظهران بالبداهة ضراوة المعركة التي يخوضها المثقف العربي في فلسطين المحتلة، ويظهران، بالتالي، القيمة الحقيقية والحجم الحقيقي لأدب المقاومة الذي يكتسب، بالقياس لكل هذه الحقائق، قيمة مضاعفة.

من المفيد في هذا المجال اختيار نموذج للأجوبة يعبر فعلاً عن موقف المثقف العربي إزاء هذه القضية الشائكة، وسنسجل ها هنا الجزء الأوفر من جواب المؤرخ العربي بولص فرح، من حيفا،

Twitter: @ketab_n

الذي سنلاحظ أنه انتهز بذكاء فرصة هذا الاستفتاء ليشن حملة على جوانب مختلفة من سياسة القمع الإسرائيلية، وليقول رأيه، بشجاعة، بكثير من القضايا التي لا يمكن أن يقال رأي عربي فيها في المناسبات الأخرى، وبالتالي يكتسب هذا الرأي قيمة الوثيقة التاريخية التي تشكل علامة أساسية من علامات النضال الثقافي العربي في فلسطين المحتلة.

يقول بولص فرح:(٥٤)

- من أين لنا أن نقدم على معالجة هذا الموضوع ونحن في عزلة تامة، نعيش بلا صحيفة أو كتاب أو تقرير أو مكتبة تكون مورداً للدرس والتمحيص والتدقيق والبحث والمقارنة حتى تكتسب أقوالنا وكتاباتنا طابع العلم، ودراساتنا صفة الدقة، والإجابة العلمية، هذا إذا سلمنا أن الموضوع علمي أكثر منه شقشقة لسان، أو ترفيهات فكرية مريحة؟

فضلاً عن ذلك فإنه من حق القارئ أن يفهم في إطار التعريف المحدد معنى التقدم والتأخر الاجتماعيين، ما هي مقاييس التقدم الاجتماعي أو التأخر الاجتماعي؟ أهي مفاهيم أخلاقية أو آداب

(٥٤) مؤرخ فلسطيني من حيفا، يعرفه الجميع لأنه من الجيل المخضرم الذي تتلمذ الكثيرون على يديه. يمتلك منطلقات يسارية. جريء للغاية. كتب أبحاثاً سياسية وتاريخية تتميز بقوة المنطق والوضوح والجرأة.

Twitter: @ketab_n

سلوك أو كيفية ثقافية أو فلسفة حياتية؟ أهي السعي لسعادة الإنسان، كل إنسان؟ وكيف تتم هذه السعادة؟ أفي الملكية العامة لوسائل الإنتاج أو في الملكية الخاصة؟ أم هي نظرة داعية لمصير الإنسان؟ للسلم أو الحرب؟ للعنصرية والتمييز أو للتآخي والمساواة؟ بسلب شعب آخر حقوقه أو تمكينه من هذه الحقوق؟

... ويلاحَظ من خلال نقاش أفراد الندوة أن التقدم الاجتماعي، أو الإيجابية الاجتماعية، هو بخروج ابن القرية إلى المدينة وتبني ظواهرها، وتبديل القمباز والجلباب بالبدلة ولعب ابن القرية الورق في المقهى البلدي، وخروج ابن الناصرة مع صديقته لزيارة السينما، وإذا منع عن ذلك «فهنا تكمن الرجعية»، على حد قول السيد شالوم كوهين!

... أما الأخ الشاب محمد مصاورة فيقرر بشطحة قلم: «أن المجتمع العربي (في إسرائيل) متأخر في تفكيره ومفاهيمه الاجتماعية والنفسية، والمشكلة في أساسها مشكلة ثقافة».. ومن هذا نفهم أن الثقافة قد تؤخر أو تقدم المجتمع المعين، فإذا كان المجتمع على مستوى عـالٍ من الثقافة كان مستوى تقدمه الاجتماعي عالياً، أما إذا كانت ثقافة شعب متدنية، تدنت أوضاعه الاجتماعية.

Twitter: @ketab_n

ونتساءل الآن: إذا كانت الثقافة هي المعيار الذي نتعرف بواسطته على تأخر أو تقدم المجتمع المعين، فهل كان ينقص الشعب الألماني الثقافة عندما نام ضميره على تدمير حياة الملايين في أفران الحرق النازية؟ ولمَ لم تقم البدلة الإفرنجية، وهي مظهر من مظاهر التقدم الاجتماعي حسب رأي السيد كوهين، على ردع الفرنسيين عندما أشعلوها حرباً إفنائية ضد الشعب الجزائري؟ ولمَ لا يقدم الأميركيون المتقدمون تقدماً اجتماعياً كبيراً على وقف إفناء الشعب الفيتنامي؟

أم هذه سياسة، وتلك اجتماع؟

من قال إنه يمكن للمرء أن يفرق بين الفهم السياسي والنظام الاجتماعي؟ أوليست الأولى مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية؟

... السياسة (في إسرائيل) تعمل على تأخير تطوير العرب الاجتماعي على مختلف أنواعه، لذلك يناهضها العرب، فهم لا يضحون «بالتطور الاجتماعي على مذبح الهدف السياسي القومي»، على حدّ قول السيد كوهين، بل هم ضحية مخططات اجتماعية... وهنا تغدو السياسة اجتماعاً واقتصاداً، والعكس بالعكس.

ماذا نفهم من كلمة مجتمع متقدم؟ (ألا يعني ذلك) علاقات اجتماعية متقدمة تنفرد بخصائص هادفة إلى الخير والعدل والحق؟

Twitter: @ketab_n

فأين التقدم الاجتماعي اليهودي الذي يتكلم عنه السيد غلعادي، الذي يتحلى بهذه الخصائص؟

هل الانجرار وراء عجلة الاستعمار يعتبر تقدماً اجتماعياً؟ هل تزييف إرادة الأقلية القومية في الانتخابات العامة مظهراً من مظاهر التقدم الاجتماعي؟ أم نزع ملكية أراضي الفلاحين العرب ووهبها إلى المهاجرين اليهود، وتجميد نشاط زبدة المثقفين العرب واصطناع العملاء يدخل ضمن خصائص التقدم الاجتماعي؟

فنقطة الانطلاق لأي مجتمع ليست بارتداء البدلة الإفرنجية، فقد ارتدى الأتراك البدلة الإفرنجية، وتبرنطوا، ولم يغيرهم المظهر وبقوا في عداد الأمم المتخلفة، وليس (التقدم الاجتماعي) بالسماح بمرافقة الصبيان للبنات إلى دور السينما والتواصل الجنسي المبكر..

... وبعد، فإني أتهم وأضع جدول البحث للندوة بأنه أراد أن يتهرب من الواقع العربي في إسرائيل وإشغالنا بمعارك جانبية وبحوث بيزنطية مجردة: عن مكانة المرأة والمهور وإيجابية اللباس الإفرنجي ومرافقة الصبيان للبنات، ونسي أن يذكر، أن في البلاد لا يوجد نادٍ ثقافي عربي واحد يعمل، وأن في البلاد لا يوجد منظمة عربية واحدة تدافع عن مصالح العرب، وأن في البلاد خوفاً شديداً من رجال المباحث الذين لا ضمائر لهم، وأن في البلاد خوفاً وقلقاً

Twitter: @ketab_n

على المستقبل، وأن في البلاد بطالة متفشية بين العمال العرب لم يسبق لها نظير...»[٥٥]

◈ ◈ ◈

وسط هذه التحديات التي حاولنا أن نوجزها هنا،[٥٦] كيف قطع الأدب الفلسطيني المقاوم رحلته الصعبة في العشرين سنة الماضية ليصل إلى الدرجة العالية التي وصلها الآن؟ ماذا قال؟ وكيف قال هذا الذي آمن به؟ وما هو المستوى الذي حققه في الشكل والمضمون؟

إن الصفحات التالية هي محاولة لرصد هذا الأدب المقاوم في تطوره الدؤوب والوسائل التي توصل إليها في التعبير، من خلال الإطار الذي سجلته الصفحات السابقة عن المناخ القمعي الفريد الذي يعيشه المثقف العربي في الأرض المحتلة، دون فترة انفراج واحدة، منذ عشرين سنة.

---

(٥٥) «هذا العالم»، العدد ٣٨ (أيار/مايو ١٩٦٧).

(٥٦) لأخذ فكرة أكثر تكاملاً وتفصيلية في هذا النطاق، راجع الدراسة الممتازة التي وضعها صبري جريس بعنوان «العرب في إسرائيل»، والتي ترجمها مكتب جامعة الدول العربية الى العربية، ونشرت بالعربية عن مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، وبالإنكليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أدب المقاومة الفلسطيني
«أبعاد ومواقف»

سامي يقف وحده على خشبة المسرح في مسرحية ذات بطل واحد، كتبها في الأرض المحتلة شاب اسمه توفيق فياض، إنه يتحدث عن كابوس يلمّ به، وفجأة يتوقف، ينظر ناحية الجمهور ويتفحّص الجالسين بارتياب، ويقول مشيراً إلى الجمهور باستغراب:

– ماذا؟ أنتم؟ ألا تزالون هنا؟ ماذا تفعلون هنا بحق الشيطان؟ أوه! يا للغباء! ظننتم أنني سأترك هذا البيت لكم؟ يا للوقاحة! منتهى الوقاحة! كدت أنسى أنكم هنا، كدت أنسى تماماً. ما كان عليّ أن أفعل. يتحتّم عليّ ألا أغفل عن ذلك مطلقاً، إنكم تحتلون بيتي، تسرقون حريتي، ودون مبرر، دون أن يردعكم قانون عن ذلك، لا. لا. لن أنسى مطلقاً. أعدكم بذلك، إنه لسوء حظكم، ولكنني سأبرّ بوعدي.»

إن هذا الخروج المفاجئ من المسرحية العادي، المليء بثقل كابوس مشوش ومختلط، يشبه الصدمة الكهربائية، إنه نوع من

Twitter: @ketab_n

الاكتشاف يشبه أن تشعل ضوءاً في غرفة مظلمة، فإذا الأمور التي كانت تبدو مشوّشة ومختلطة، تسقط إلى وضوح مباشر وصاعق.

مسرحية «بيت الجنون» لتوفيق فياض علامة بارزة في أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، فهي، شكلاً ومضموناً، أكثر من صرخة شجاعة، إنها تفسير وموقف ونبوءة، فالبطل سامي وحده هو بطل المسرحية، وكلمة «وحده» ليست رفاهاً تكنيكياً في المسرحية، ولكنها إعلان عن الموقف بالشكل، والجمهور الذي يواجهه البطل طرف في صلب المسرحية، وحين يقف على مقدمة المسرح يواجه فجأة ظاهرة غريبة فيقول بارتياب:

– لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ لماذا تتخذون جميعكم نفس الهيئة حين أنظر إليكم؟ أو أحدثكم؟

إن سامي، مدرس التاريخ والأدب، المطرود من عمله، يعيش في غرفته الصغيرة كابوساً مروعاً. بينه وبين نفسه، ثمة اختلاط بالأمور يأخذ طابع الجنون، ولكنه حين يواجه «المتفرجين» تتضح الأمور أمامه كأنما بفعل السحر، ويأخذ حواره مع نفسه طابع الوضوح والمباشرة. والمباشرة هنا ليست ضعفاً في الأداء الفني ولكنها ضرورة لها عمقها الخاص. وفي النهاية، حين يشعر إنه محاصر بالذين جاؤوا ليقبضوا عليه بلا سبب، وبالريح الغربية،

Twitter: @ketab_n

وبالكابوس، يعلن موقف كما يلي:

- هناك... أنت... هل تسمع؟ إنني لا أخافكم، لا أرهبكم، سأتحداكم جميعاً، سأنتصر عليكم جميعاً.. جميعاً، وحدي.

ويخرج سامي من الباب، فيما نسمع صوته يدوي:

- وحدي.

ليس سامي إلا كلمة المقاومة، وليست مسرحية «بيت الجنون» إلا قصتها، فهو رجل معزول، محارب، ملاحق من الخارج ومن الداخل، وإلى حد بعيد مخدوع وممزق ومشوش وشبه يائس، ولكنه في نهاية المطاف يقاتل وحده، ولا يخاف، ويعد ألا ينسى، وحين يطوف رغماً عنه فوق مدّ الإنسان والظروف وجزرهما، يعود فجأة إلى الرؤية الواضحة والمباشرة، ويدق نفسه إلى أرضه الحقيقية:

- إنكم على حق، طبيعي أن يضيق المجرم بآثار جريمته، وطبيعي أن يدفعه ذلك إلى ارتكاب جريمة غيرها، حتى يتمكن أخيراً من القضاء على كل ما يذكره بجريمته الأولى.

إنه يدرك ذلك، ويمضي مرة أخرى فيقول:

- ما كان عليّ إزعاجكم بمشكلة تخصني وحدي، لا أدري. ربما كانت تخصّكم أيضاً، بل لا بد وأن تخصكم، إنني لم أدعكم إلى بيتي.

Twitter: @ketab_n

ويشير إلى إحدى الحاضرات بين الجمهور:

– هل تخصك هذه المشكلة؟ أعني أعني أن تكوني مجرمة، وأن تقضي على كل أثر لجريمتك. أوه! لم أقصد، كنت أعني، أن يكون جنينك من صنع حداد ثم، ثم يميته؟ طبيعي ألا توافقين![٥٧]

ولكن هذا الإنسان الوحيد الذي يواجه منفرداً تحديات داخلية وخارجية، ويعقد العزم على المضي بمعركته إلى نهايتها، لا يخضع على الإطلاق إلى رؤية مجتزأة أو مصغرة، فسامي نفسه، بطل «بيت الجنون»، يتوصل في نهاية المطاف إلى موقف مدرك لجميع أبعاد مسألته، وهو، وإن كان يعد المشاهدين بألا ينسى على الإطلاق إنهم اقتحموا بيته، ويعتبر أن هذا الاقتحام يلقي على أكتافه مهمة عاجلة، إلا إنه لا يخدع نفسه باجتزاء مشكلته على هذه الصورة، وهو يرى – بالرغم من تشوشه وثقب الكابوس المباشر الذي يجثم فوق رأسه – الأبعاد الأخرى لقضية الاقتحام هذه، ويشير إليها ببراعة متلمساً حدودها المحلية والعربية والعالمية والاجتماعية، أيضاً.

إن أدب المقاومة في فلسطين المحتلة يتميز بهذه الرؤية العميقة، ولذلك فهو يقاتل على أكثر من جبهة، وسيكون من

---

(٥٧) «بيت الجنون»، مسرحية بقلم توفيق فياض، اقرأ نصها الكامل في ملحق «الأنوار» الأسبوعي، العددين ٢٤٥٥، ٢٤٦١ (١٣ و١٩٦٧/٨/٢٠).

Twitter: @ketab_n

المدهش حقاً أن يرى الدارس، في إنتاج أدباء الأرض المحتلة، إدراكاً مبكراً، عبر الشعر والقصة والمسرحية، لكثير من معطيات الموقف الذي اكتشفه الأدباء العرب، أو على وشك أن يكتشفوه في مختلف البلاد العربية، على العموم، في أعقاب ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

سنرى فيما يلي أن أدب المقاومة في فلسطين المحتلة قد ربط ربطاً محكماً بين المسألة الاجتماعية والمسألة السياسية، واعتبرهما طرفين من صيغة لا بدّ من تلاحمهما، لتقوم بمهمة المقاومة. وقد مضى ذلك الأدب إلى أبعد من هذا، حين أدرك في وقت مبكر أيضاً الترابط العضوي بين قضية مقاومة الاحتلال الإسرائيلي وبين قضايا التحرر في البلاد العربية وفي العالم، وعلى هذه الجبهات جميعها، بكل تعقيداتها، خاض أدب المقاومة في فلسطين المحتلة معركة التزاماته.

لقد اخترنا مثال «بيت الجنون» كنموذج للبساطة الأصيلة التي تتم فيها عملية الربط المعقدة التي أشرنا إليها، فبطلها الوحيد، الذي تتنازعه تحديات متعددة، يعود بين لحظة وأخرى ليثبت تلك التحديات جميعها حول محور واحد، هو المواجهة المباشرة مع التحدي الإسرائيلي الأثقل. وبالتالي تغدو كل التحديات المذكورة

Twitter: @ketab_n

مربوطة إلى ذلك المحور بجاذبية لا فكاك منها، ولكنها جاذبية ليس من شأنها إلا توضيح أبعاد النزال.

إن هذا الواقع الذي تبلور من تلقائه، خلال تطورات متداخلة، قد أدى بدوره إلى ظاهرة هامة ينبغي ملاحظاتها، فالغالبية الساحقة من أدباء المقاومة في فلسطين المحتلة يمدون التزامهم إلى ما هو أبعد من الحدود الفنية، إنهم منتسبون فعلاً إلى الحركة الوطنية بصورة أو بأخرى، ويناضلون من خلال تنظيماتها، ويذوقون، في سبيلها، نتائج سياسة القمع الإسرائيلية، لقد بات معروفاً - مثلاً - أن الشاعر محمود درويش قد أودع السجن مراراً، وأن الشاعر سميح القاسم قد ذاق بدوره مرارة الأحكام العسكرية. وقد مارست الحكومة الإسرائيلية ضغطاً متواصلاً على شركة أهلية لتطرد من بين موظفيها الشاعر فوزي الأسمر بسبب شعره، ونضاله السياسي معاً،[٥٨] وتعرض الشاعر توفيق زياد إلى الطرد من وظيفته، وكذلك توفيق فياض، وغيرهم.

ولكن سياسة القمع هذه لم تؤدّ إلى أية نتيجة سلبية، وفي الواقع فإن شاعراً مثل محمود درويش قد جدد رؤياه وطور أداءه

---

(٥٨) راجع جريدة «المرصاد» التي تصدر في إسرائيل (١٩٦٦/٦/٢)، نشر الخبر تحت عنوان «راسكو تقيل الموظف العربي الوحيد فيها» مشيراً إلى ضغط الحكومة على الشركة لأسباب تتعلق بنشاط فوزي الأسمر الثقافي والسياسي.

Twitter: @ketab_n

بصورة مذهلة خلال وجـوده في السجن، وكذلك فعل سميح القاسم، وأدت سياسة القمع الإسرائيلية، التي غالباً ما كانت تغطي نفسها بمحاولات لتفتيت المجتمع العربي في الأرض المحتلة، وتأليبه على بعضه، إلى إدراك متزايد للوجه الاجتماعي في حركة المقاومة. وقد انعكس هذا، بصورة خاصة، على القصص القصيرة التي تعاملت أولاً مع قضايا التقاليد الكابحة داخل المؤسسة الاجتماعية العربية، ورفضتها، في سبيل تجديد دماء المجتمع العربي ليكون قادراً على مواصلة مسؤوليات المقاومة، والمضي فيها إلى مداها، وانعكست أيضاً، وغالباً، في شعر الشعراء الشبان مع مطالع تجاربهم. وأي رصد لهذه التجارب سيؤدي إلى ملاحظة موحدة تقريباً، وهي أن الشاب يبدأ تجربته غالباً برفض القيود التي يفرضها المجتمع الريفي على علاقات الرجل بالمرأة، أو الأب بالابن، إلا إن هذا الرفض ما يلبث، وبصورة متسارعة، أن يأخذ أبعاده وأعماقه، ويتوصل إلى الارتباط بآفاق التحدي المختلفة التي تواجه المواطن العربي في الأرض المحتلة، ليخرج من ذلك كله بالصيغة النهائية الراهنة، وهو إعطاء أدب المقاومة بعده التقدمي، الاجتماعي، العربي، والعالمي.

وحين يتصفح الناقد شعر محمود درويسش وسميح القاسم

Twitter: @ketab_n

وغيرهما، في أوائل عهد هؤلاء الشعراء بنظم الشعر، يلحظ ذلك بصورة واضحة، فشعر هؤلاء لا يتصف فقط برفض عصبي لظاهرة اجتماعية محدودة، ولكنه يتصف أيضاً بضعف مثير للدهشة في بنائه الفني.

لسميح القاسم مثلاً، في أواسط الخمسينات، قصائد رومانسية عن المرأة، ذات أفق محدود وموقف جزئي وضعف فني ملحوظ. ولكنه، بعد سنوات قليلة، يسوي بناءه الفكري والفني بصورة فريدة، نلحظها في قصيدته «أنتيغونا» ابنة أوديب الشهيرة:

خطـوةٌ، ثِنْتـان، ثلاثْ
أقدِمْ أقدِمْ
يا قربانَ الآلهة العمياءْ
يا كبشَ فداءْ...
في مذبحِ شهواتِ العصرِ المظلمْ
خطـوةٌ، ثِنْتـان، ثلاثْ
زندي في زندك
نجتازُ الدرب الملتاثْ!
يا أبتاهْ!
ما زالت في وجهك عينان

Twitter: @ketab_n

في أرضك ما زالت قدمان

فاضربْ عبرَ الليلِ

بِأشأمِ كارثةٍ في تاريخ الإنسان

عبرَ الليل، لنخلق فجر حياة

يا أبتاه !

أن تُسْمِلْ عينيك زبانيةُ الأحزان

فأنا ملءُ يديك

مِسرَجَةٌ تشربُ من زيت الإيمان

وغداً يا أبتاه أُعيد إليك

قَسَماً يا أبتاه أُعيد إليك

ما سلبتك خطايا القرصان

قسماً يا أبتاه!

باسمِ الله وباسم الإنسان...

خطوةٌ، ثِنْتان، ثلاثْ

أقدِمْ.. أقدِمْ

وسيعطينا محمود درويش مثالاً أوضح على هذا التطور النوعي، الذي ينمو من تلقائه من خلال الممارسة الفعلية للمقاومة.

Twitter: @ketab_n

ففي أواخر الخمسينات يأخذ غضب محمود درويش، شكلاً ومضموناً، الوضع التالي حين يشكو من عسف التقاليد التي تلحق الأذى بالفتاة التي يحبها:

وتنامُ أجفانُ الحياة
إلا بكاء من كئيبٍ موجع
ينسلّ من أعماق بيت
من بيوت القرية
هي بنت شيخ القرية
تبكي وتصرخُ باكتئابْ
والسوطُ محمر الإهابْ

ولكن لنلحظ، بعد سنوات قليلة، تلك القفزة التي لا تصدق يقوم بها الشاعر نفسه، منتقلاً من ذلك الضعف الفني الملحوظ والتصدع في المضمون، إلى درجة عالية جديدة:

لقد تعوّدَ كفي
على جراح الأماني
هزي يديّ بعنف
ينسابُ نهرُ الأغاني

Twitter: @ketab_n

يا أمَّ مُهري وسيفي...

يداك فوق جبيني

تاجان من كبرياء

إذا انحنيتُ انحنى

تلٌ وضاعت سماءْ

ولا أعودُ جديراً

بقبلةٍ أو دعاء

والبابُ يوصدُ دوني !

على يديكِ تصلّي

طفولةُ المستقبلْ

وخلف جفنيكِ طفلي

يقولُ: يوميَ أجمل

وأنتِ شمسي وظلّي

إن هذه الظاهرة شائعة بصورة تشبه القاعدة، وراشد حسين يتطور على طريقته الخاصة ضمن هذه القاعدة، ففي قصيدة له في أواخر الخمسينات يغازل فتاته بالصورة التالية:

ونمرّ في أطيانكم يوماً فيصدفنا أجيرْ

Twitter: @ketab_n

قذرُ الثياب، فتبصقين على التراب

فأحسّ في عينيّ إعصارا

وفي بدني سعير

وأقول: يا بنتَ الأمير !

أنا كلّ شعري للأجير

وبعد سنوات قليلة سيقفز راشد حسين بدوره قفزة لافتة للنظر في الشكل والمضمون على السواء، ففي قصيدته «الجياد» يأخذ غضبه ورفضه الصيغة التالية:

في قُرانا بين طيات الدخانِ

يكبرُ الطفلُ لكي تكبرُ بالطفل التهاني

ليقولوا: أصبح المحروس حلماً للحسان

أو عريساً صار، في سن الزواج

ابن فلان

وإذا جيلٌ من العرسان يجتاحُ بلادي

جيلُ أطفالٍ كبار، كالجيادِ

ملأتْ أذهانهم أشباحُ تفكير رمادي

ويمضي يقول عن الناس:

Twitter: @ketab_n

همّهم أن تلد الزوجة مولوداً ذكرْ

ليقولوا: إنها بنتُ أصيل مفتخرْ

وضعتْ طفلاً ذكرْ

وجهُهُ وجهُ القمرْ

ليقولوا: زوجُها فحلٌ عظيمْ

رجلٌ.. »

بعد هذا، ليصيرَ ابنُهُمُ راعي ذباب

في الخمسينات سنقرأ شعراً كثيراً، في الأرض المحتلة، يركز تركيزاً متواصلاً على قطاع ضيق من الإشكال الاجتماعي، وفي هذا النطاق ترد أسماء القاسم والدرويش وحسين، وكذلك فهد أبو خضرة (وهو شاعر موهوب وصاعد لم نعد نسمع عنه)، وأحمد حسين، وعصام عباس، وإبراهيم مؤيد، وغيرهم كثير.

ولكن بعد ذلك بعدة سنوات سيأخذ ذلك التنبه الجزئي آفاقه الأبعد وأبعاده الأعمق، ففي ذلك الوقت المبكر كانت الكارثة الفلسطينية ما تزال حارة، وكان الغضب المجرد، بصورة فاجعة ومذهلة، يطفو إلى السطح، شأنه في ذلك شأن ما حدث في أعقاب ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧ في البلاد العربية حين مضى عدد من

Twitter: @ketab_n

الكتاب والشعراء يصبّون غضبهم على جبهة جزئية، إلا إن ذلك الغضب ما لبث أن تبلور في صيغة موقف، ومما لا شك فيه أن محمود درويش وسميح القاسم هما طليعة لافتة للنظر في هذا الشأن.

بالنسبة لمحمود درويـش فإن محور المقاومة، كمعركة مباشرة، هو من الوضوح والرسوخ بحيث يطوع موقفه الاجتماعي دون مساومة، وعلى صعيد فني، فإن العائلة، عند محمود درويش هي ذاتها الوطن، وكذلك الحب، والمسألة برمّتها، في أبعادها المختلفة التي تكون جوهر حقيقتها، تنسكب في شعره بصورة موحدة راسخة البناء، وربما كان هذا المقطع يلخص الموقف:

خبّئي عن أذُني هذي الخرافات الرتيبةْ

أنا أدرى منك بالإنسان

بالأرض الخصيبةْ

لم أبغْ مُهري

ولا رايات مأساتي الخصيبة

ولكن محمود درويش يعرف أن هذا الموقف لا يزال جزئياً، ولا بد من استكماله، فيتابع بانسياب تلقائي، واضعاً للبعد

Twitter: @ketab_n

الاجتماعي أساسه الأعمق:

ولأني أحملُ الصخرَ

وداءَ الحبّ

والشمس الغريبةْ

أنا أبكي!

أنا أمضى قبل ميعادي، مبكرْ

عمرُنا أضيقُ منّا

عمرُنا أصغرُ أصغرْ...

أصحيحٌ يثمرُ الموت حياة؟

هل سأثمرْ

في يد الجائع خبزاً

في فم الأطفال سكّر؟

إنه يدعو دعوته الواسعة:

فاحموا سنابلكم من الإعصارِ

بالقدم المسمّر

هاتوا السياجَ من الصدورِ

من الصدور

فكيف يكسر؟

Twitter: @ketab_n

اقبض على عنق السنابلِ

مثلما عانقت خنجرْ!

الأرض والفلاح والإصرار

قل لي: كيف تقهر؟

هذي الأقانيمُ الثلاثةْ

كيف تقهر؟

وعلى طريقته الخاصة يقول سميح القاسم الشيء نفسه في قصيدته الطويلة «إرم»:

أبداً على هذا الطريقْ

راياتنا بَصَرُ الضرير، وصوتُنا أملُ الغريقْ

أبداً جحيمُ عدونا، أبداً، نعيم للصديقْ

بضلوعِ موتانا نثيرُ الخصبَ في الأرض اليبابْ

بدمائنا نسقي جنيناً في الترابْ

ونرد حقلاً شاخ فيه الجذعُ، في شرخ الشبابْ

ونصبّ في نبض المصانعْ

للمربّي، والحقائب، والثياب

Twitter: @ketab_n

نبضَ القلوب المؤمناتْ...

أبداً على هذا الطريقْ

نذوي فدى أشواق سنبلة على وعد العطاءْ

ونصيحُ من فرح غريرِ الدمع في عرس الفداء:

أبداً على هذا الطريقْ!

شرفُ السواقي أنها تفنى فدى النهرِ العميقْ!

ولسميح القاسم ومحمود درويش قصائد كثيرة هي إعلان صارخ عن انتساباتهم الاجتماعية التقدمية، يتبعون في ذلك أستاذهم الرائد حنا أبو حنا.

أما على صعيد القصة القصيرة التي لا تزال من حيث مستوى الأداء الفني والانتشار والكم متخلفة عن الحركة الشعرية، فإنه يوجد تركيز أكثر على الوضع الاجتماعي، ويبدو ذلك واضحاً تماماً في قصة قصيرة لعطا الله منصور اسمها «رياض يعود إلى بيته»،[٥٩] وقصة أخرى لزكي سليم درويش اسمها «نقطة دم»،[٦٠] وفي عدد كثير من القصص المماثلة، أهمها «رنين الأجراس» لعبد الرحمن

---

(٥٩) نصها متوفر بالإنكليزية فقط، مجلة شهرية تصدرها في إسرائيل مؤسسة تازبيث للنشر. *New Outlook*, no. 43 (April, 1962).

(٦٠) في مجلة «الفجر»، العدد٢ (شباط/فبراير ١٩٦١).

Twitter: @ketab_n

محمد سعيد،[٦١] التي تحوي موقفاً طبقياً وتركز على نقد العلاقات الاجتماعية، وعدد كبير من القصص القصيرة التي تتعامل مع مشكلات المؤسسة العائلية العربية الريفية ورفضها، أو على الوضع الاقتصادي المتردي الذي يعيشه العربي في فلسطين المحتلة.

إلا إنه من الملاحظ بوضوح أن هذه القصص، التي تشكو في الغالب من تصدع فني كبير، تشكو أيضاً من عجزها عن الوصول إلى المستوى الذي وصل إليه الشعر في فلسطين المحتلة، في نطاق الربط بين الجبهات التي تتصدى لها حركة المقاومة في صيغتها الثقافية.[٦٢]

---

(٦١) المصدر نفسه، العدد ٣ (أيار/مايو ١٩٦٢).

(٦٢) من المؤسف حقا أننا لا نستطيع، حتى الآن، وضع دراسة كاملة عن العمل النثري في الأدب العربي في الأرض المحتلة، والرواية الوحيدة التي سمعنا عنها كانت «المشوهون» لتوفيق فياض، ولكن الحصول عليها كان متعذراً، ثمة قصص قصيرة تلفت النظر، أشرنا إلى بعضها، ولكنها لا تكفي فعلاً لتكون مصادر بحث متكامل. في هذا النطاق توجد قصة قصيرة جيدة اسمها «لأننا نحب الأرض» بقلم محمد نفاع (من بيت جن) نشرت في «الجديد» (أيار/مايو ١٩٦٨) وهي قصة تشير إلى كاتب واعد، و في نفس العدد من هذه المجلة يلمح القارىء ناقداً جيداً اسمه محمد علي طه (من كابول) ومع ذلك يظل الشعر، وغزارته وتعدد كتابه، هو الظاهرة الملفتة للنظر.

إلا إنه يجدر الإشارة، مبدئياً، إلى عمل أدبي اسمه «سداسية الأيام الستة» بدأ كاتب مجهول اسمه أبو سلام من الناصرة ينشره بالتسلسل في «الجديد» منذ آذار/مارس ١٩٦٨، ومما لا شك فيه أن وراء هذه السداسية التي يمكن ببساطة اعتبارها نموذجاً للقصة-المقاومة موهبة ممتازة، وهي تشكل أبرز علامة في العمل النثري العربي داخل الأرض المحتلة حتى الآن.

Twitter: @ketab_n

وسبب ذلك لا يعود فقط إلى أن الشعر وسيلة فنية أكثر رسوخاً وأكثر قدرة على الانتشار وأكثر ملاءمة لهذا الغرض فنياً، ولكن أيضاً لأن وسائل النشر، في الظروف التي يعيشها عرب الأرض المحتلة، لا تسمح بتطور سريع في موضوع القصة بالذات.

◆ ◆ ◆

لقد حاولنا إلى الآن أن نقدم عرضاً موجزاً للبُعد الاجتماعي في أدب المقاومة، ومن الواضح أن هذا الفصل بين الأبعاد المختلفة، التي تكوّن في مجموعها المترابط أدب المقاومة في فلسطين المحتلة. لم نلجأ إليه إلا بسبب محاولة استكشاف جوهر هذا الأدب وأسس منطلقاته وبنيانه العقائدي، ولكن على صعيد عملي فإن هذا الفصل مستحيل، لأن أدب المقاومة، كما ذكرنا سابقاً، قد توصل من خلال تطور سريع وتلقائي إلى ما يمكن أن نسميه موقفاً واحداً ولا يمكن بحال من الأحوال أن تؤخذ جزئيات هذا الموقف منفصلة إلا لغرض دراسي محض.

وفي الأساس فإن أدب المقاومة في فلسطين المحتلة قد حدد دوره بنفسه، وبالنسبة لشعراء المقاومة على وجه الخصوص فإن

Twitter: @ketab_n

الشعر سلاح، ما في ذلك شك، ولم تكن كفاءته وجدارته بالنسبة لهم إلا التزامه بدوره المقاوم الواعي.

بوسعنا إذن أن نقول أن الالتزام بالقضية الوطنية، الالتزام الواعي، هو الإطار الذي استطاع أن يقود خطوات أدب المقاومة في فلسطين المحتلة نحو مسؤولياته دون أن يفقد أي بعد من أبعاده، هذه الأبعاد التي نعود فنقول إنها، على تعددها، تدور في فلك واحد هو فلك المعركة ضد الاحتلال الإسرائيلي.

ومن هذا المنطلق بالذات سنلاحظ أن شعر المقاومة، مثلاً، على عكس معظم الشعر العربي المعاصر، لا يبدأ بالاستخفاف بقيمة الكلمة في المعركة القاسية، بل يدرك دورها ويقدسه ويعتبره مسؤولية جوهرية لا غنى عنها.

لقد رأينا في هذا النطاق كيف قال محمود درويش في أعقاب هزيمة ٥ حزيران/يونيو:

هزي يديّ بعنفِ
ينساب نهرُ الأغاني..
يا أمّ مُهري وسيفي

وهذا الإدراك العميق للعلاقة التي لا غنى عنها بين الأم والمهر

Twitter: @ketab_n

والسيف والأغاني والأيدي متوفر بصورة تثير التقدير في شعر المقاومة العربي في فلسطين المحتلة:

فسميح القاسم يبلّغ عدوه:

هذي الحروف المدلهمّة   يا سيدي أحزانُ أمةْ

وبها أروي غرسة   بلظى جحيمك مستحمّة

لا صيدَ من وادي الأسى   والدمع للأطفال بسمة

لأردَّ للثكلى ابنَها   لأعيدَ للمفجوع أمّه

فاشحذ مداك على جرا   حي إنني قربان كِلمة

ويحدد سميح القاسم نفسه دور شعره ومنطلقاته بصورة أكثر مباشرة:

من رؤى الأحلام في موسم خصب

ومن الخيبة في مأساة جدْب

ومن دمى الأطفال، من ضحكاتهم

من دموعٍ طهّرتها روحُ ربّ

من زنودٍ نسقت فردوسَها

دعوة فضلى على أنقاضِ حرب

Twitter: @ketab_n

من جراحاتٍ يضوي حقدها

ما ابتنى شعبٌ على أنقاض شعبِ

من دمي، من ألمي، من ثورتي

من رؤاي الخضر من روعةِ حبي

من حياتي أنت، من أغوارها

يا أغانيَّ! فرودي كلَّ دربِ

ويظل سميح القاسم متمسكاً بهذا الموقف إلى النهاية، وفي ديوانه «دمي على كفي» يصر على ذلك:

قصائدُنا، موقَّعةٌ على الفولاذِ

والأخشابِ والصخرِ

وأمّتُنا تحثّ الزحفَ

ما زالت تحثّ الزحفَ للفجرِ

قبل هؤلاء بزمن طويل أرسل الشاعر حنا أبو حنا، من حبسه في سجن الرملة، عام ١٩٥٨ بطاقة إلى رفاقه:

خسئوا، فما حبسوا نشيدي

بل ألهبوا نارَ القصيدِ

Twitter: @ketab_n

نار تأججُ، لا تكبّلُ

بالسلاسل والقيودِ

نار، جحيمٌ للطغاةِ

وزمرة العسف المريدِ

شرفٌ لشعري أن يقضَّ

مضاجعَ الخصمِ اللدودِ

فاعجبْ لشعرٍ يستثير الرعبَ

في مهجِ الحديدِ

أقوى من السجنِ المزنرِ

بالعساكرِ والسدودِ

أقوى وأصلبُ من حشودِ علوجِهم

أبداً نشيدي

وفي قصيدة أخرى:

شعبٌ أنا، أن يحبسوا فرداً فكلُّ الشعب ثائرْ

وإذا يُصفّدُ شاعرٌ هتفَ النشيدُ بكلِّ شاعر

شعبٌ يمدُّ حشوده جسراً على نهرِ المجازر

ويعانقُ الفجرَ الملوّح بالضياء وبالبشائر

Twitter: @ketab_n

ويؤكد محمود درويـش هذا التقديس لمسؤولية الكلمة والتزامها بصورة فريدة:

قصائدُنا

بلا لونٍ، بلا طعمٍ، بلا صوتِ

إذا لم تحملِ المصباحَ

من بيتٍ إلى بيتِ

ويمضي خطوة أخرى في القصيدة التالية بالذات:

لو كانت هذي الأشعارُ

إزميلاً في قبضةِ كادحْ

قنبلةً في كفّ مكافحْ

لو كانتْ هذي الكلماتُ

محراثاً بين يَدَي فلاحْ

وقميصاً، أو باباً، أو مفتاح!

أحدُ الشعراء يقولْ:

لو سرّت أشعاري خلاني

وأغاظتْ أعدائي

فأنا شاعرْ!

Twitter: @ketab_n

وأنا سأقولْ!

ويقول في قصيدة أخرى عن لوركا:

هكذا الشاعرُ، زلزالٌ، وإعصارُ مياه

ورياح إنْ زأرْ

همسَ الشارعُ للشارعِ: قد مرّتْ خطاه

فتطاير يا حَجَرْ

وهو يعرف ثمن هذه المسؤولية:

رموا أهلي إلى المنفي

وجاءوا يشترون النارَ من صوتي

لأخرجَ من ظلامِ السجنِ

ما أفعل؟

– تحدّ السجنَ والسجّانْ

فإنّ حلاوةَ الإيمان

تُذيبُ مرارةَ الحنظلْ

وهو يعرف أكثر من ذلك:

شدّوا وثاقي

Twitter: @ketab_n

وامنعوا عني الدفاترْ

والسجائرْ

وضعوا الترابَ على فمي

فالشعرُ دمُ القلب

ملحُ الخبزِ

ماءُ العينِ

يكتبُ بالأظافر

والمحاجر

والخناجر

سأقولها:

في غرفةِ التوقيفِ

في الحمامِ

في الإسطبلِ

تحت السوط!

تحت القيد

في عنفِ السلاسل

مليونُ عصفور

على أغصانِ قلبي

Twitter: @ketab_n

تخلق اللحنَ المقاتل

ولأنه يعرف قيمة الصوت فإنه يتمسك به تمسكه بالسلاح:

لكن صوتي صاح يوماً:

لا أهابْ!

فلتجلدوه إذا استطعتم

واركضوا خلفَ الصدى

ما دامَ يهتفُ: لا أهابْ!

وأدب المقاومة حافل بهذا الإعلان الواضح عن مهمة لا تحتمل المساومة ولا التمييع. ولفوزي الأسمر موقف مماثل في قصيدة له، اسمها «المعبد القديم»:

في معبدي القديم لم أزلْ

ألملمُ الحروف

أذيبُها في موقدِ اللهبْ

أصوغُها نغمْ

أنشودة من العزاء والأملْ

ولحنها:

Twitter: @ketab_n

من لحنِ نارِنا وحبِّنا الكبيرْ

من نورِ قلبِنا المنير

من جرحِنا

من جرحِنا الذي يلوّن العبيرْ

من زند ذاك الأسمرِ الصلبِ الذي يفجّرُ الصخورْ

من أرضنا الثكلى، ومن دمعِ الربيعِ على الزهور

إننا نلاحظ مرة أخرى محتويات ذلك الاطار الذي أسميناه الالتزام، ونحن نرى الآن في الأمثلة الثلاثة التي اخترناها كيف يصرّ الشعراء على بُعدَي موقفهم المقاوم، الاجتماعي والسياسي في وقت واحد، إنه التزام نحو الوطن والمحرّر، من خلال إدراك دور الكلمة لا الاستهانة بها واعتبارها مجرد رفاه.

إن شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة يمضون في ممارستهم للمسؤولية إلى حد أبعد، يلخصه لنا سميح القاسم في قصيدة له اسمها «بطاقة إلى نجيب محفوظ»:

فاغرفْ من أعماقِ البئرِ العذراء

واسقِ العاملَ والفرانَ وأولادَ الحارةْ

فالناسُ ظماء!

Twitter: @ketab_n

اكتبْ عن شحذِ الهمّةْ
واكتبْ عن أحلامِ الأمّةْ
طوبى للحرفِ الشامخِ في الليلِ منارةْ
والعار لأبراج العاجِ المنهارةْ

فقضية الالتزام ليست نظرية مجردة، وكذلك ليست قضية التحرير، والرؤية الواضحة لأبعاد القضيتين كمبادىء وكرسائل لا تحتمل عند أدباء المقاومة في فلسطين المحتلة غموضاً أو تشويشاً أو مساومة، وهذا بالذات ما جعل أدب المقاومة الذي رأيناه في فلسطين المحتلة خلال السنوات العشر الماضية أدباً لا ينوح ولا يبكي، لا يستسلم ولا ييأس، ولا يناقض نفسه ويمرّ عبر تشنّجات عصبية واهتزازات ناتجة عن سوء وعي الموقف على حقيقته، لأن رؤياه لم تكن ارتجالاً عاطفياً، ولكن وعياً عميقاً ومسؤولاً لأبعاد المعركة التي وجد نفسه في صميمها، ولذلك فإنه تجنّب ظاهرة الانتكاسات الذاتية الرومانسية التي شهدها معظم الشعر العربي في هذه الآونـة، والتي نلاحظ أنها تشتدّ وتأخذ طابع النواح والهستيريا والتنصّل، كلما كانت تجربة الشاعر نفسه أكثر بُعداً عن إدراك أبعاد التزاماته ووعيها في السابق.

Twitter: @ketab_n

فمقابل ما قرأناه جميعاً في الآونة الأخيرة من الشعر العربي، يستقبل توفيق زياد، مثلاً، كارثة ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧ بقصيدة يقول فيها:

يا بلادي! أمسِ لم نطفُ على حفنةِ ماءْ
ولذا لن نغرقَ الساعة في حنفةِ ماء !

بهذا الثبات يكتب توفيق زياد قصيدته الرائعة «كلمات عن العدوان»، وهي قصيدة مفعمة بالحزن، ولكنه الحزن الواعي الذي لا يستطيع أن يهدم:

إنكم تبنونَ لليومِ وإنّا
لغدٍ نعلي البناءْ
إننا أعمقُ من بحرٍ وأعلى
من مصابيحِ السماءْ
إن فينا نَفَساً
أطولَ من هذا المَدى الممتدّ
في قلبِ الفناءْ

ومحمود درويش يستقبل كارثة ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧ بذلك الحزن الذي لا يصدق، والـذي يرتد فـوراً إلى نفس جديد من

Twitter: @ketab_n

الإصرار:

خسرتُ حلماً جميلاً

خسرتُ لسعَ الزنابقْ

وكان ليلي طويلاً

على سياجِ الحدائقْ

... وما خسرت السبيلا!

وفجأة يرتد إلى كورس شعبي يشكل خلفية هذا الحزن والتوق، والسد المنيع الذي يتكىء عليه:

يما مويل الهوى

يما مويليا

ضرب الخناجر ولا

حكم النذل فيّا!

أما سميح القاسم فيستقبل ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧ بصورة فريدة، في قصيدة عن الفدائي، تنتهي كما يلي، على لسان الفدائي الشهيد:

يا من ورائي

لا تخونوا موعدي

Twitter: @ketab_n

هذي شراييني

خذوها وانسجوا منها

بيارقَ نسلِنا المتمرد

إن مثل هذه المواقف لا يمكن أن تأتي بهذه التلقائية لو لم يكن هؤلاء الشعراء قد أدركوا منذ البدء، ليس فقط أبعاد معركتهم التي راهنوا عليها في نهاية المطاف، ولكن أيضاً مدى التزامهم ومعناه وكونه أكثر عمقاً من مجرّد تظاهرة شكلية.



إن هذا الكلام يقودنا على التوّ لمتابعة استكشاف الأبعاد التي التزم بها أدب المقاومة، وقد استعرضنا قبل قليل الالتزام الواعي كإطار هذه الأبعاد، واستعرضنا قبل ذلك الالتزام بالبعد الاجتماعي لمسألة المقاومة، وأمامنا الآن: البعد العالمي، والبعد العربي.

وكما قلنا فإن تجزئة الموقف إلى هذه التفاصيل هدفه تسهيل العرض، وقد رأينا في الأمثلة التي استعرضناها نموذجاً لاستحالة فصل هذه الأبعاد عن مجمل الموقف.

عالمياً يدرك شعر المقاومة التزامه بحركة الثورة في العالم،

Twitter: @ketab_n

التي هي في نهاية المطاف المناخ الذي تنمو داخله الحركة الثورية المحلية، تؤثر به وتتأثر منه.

فيما بين أيدينا من أدب المقاومة يلفت نظرنا بصورة مدهشة كمية ونوعية الإنتاج الذي يغني لثورات العالم وقضاياه الحرة، وقد تلخص لنا قصيدة لمحمود درويش اسمها: «أناشيد كوبية» جوهر هذا الالتزام ومعناه:

أنا لم ألمسْ قصبَ السكّرْ

والأرضَ الخضراءْ

لم أركبْ قاربَ صيادٍ في البحرِ الكاريبي

لم أضربْ قطرةَ ماءْ

لم أنزلْ فندقَ سياحٍ غرباءْ

لم أسكرْ في هافانا من عرقِ الفقراءْ

لم أغمسْ قَلَمي في جرحِ البؤساءِ المحرومين

لم أقرأ أدبَ الشعراء الكوبيينْ

لكنْ عندي عن كوبا أشياء وأشياء

فكلامُ الثورةِ نور

يقرأُ في كلِّ لغاتِ الناسْ

وعيونُ الثورة شمس

Twitter: @ketab_n

تُمطرُ في كلِّ الأعراسْ
ونشيدُ الثورةِ لحن
تعرفُه كلُّ الأجراسْ
والرايةُ في كوبا
يرفعُها نفسُ الثائرِ في الأوراس
وجذورُ الثورةِ مهما مدَّت أغصاناً
تنبتُ من نفسِ المتراسْ
واللهبُ الأزرقُ والأحمرُ والأخضر
يبدأُ من غضب واحد
فتدفأ..
واصنعْ لهباً آخر
يا شعباً يشعرُ بالبرد

حين قلنا إن أبعاد أدب المقاومة المختلفة يشد نفسه، بجاذبية قوية، إلى محور واحد هو محور المقاومة نفسها التي يخوضها الأديب المعني، فإنما كنا نقصد تلخيص هذه القصيدة، بجملة.

ولكن ليس محمود درويـش وحده هو الذي يلتزم شكلاً ومضموناً بهذا البعد الحيوي من أبعاد أدب المقاومة، فثمة قصائد

Twitter: @ketab_n

كثيرة لفوزي الأسمر، بهذا المعنى، أبرزها «أنا عبد» موجهة لشعب إفريقيا، ولسميح القاسم عدة قصائد عن باتريس لومومبا، وإفريقيا، وزنوج اميركا، وله أيضاً في قصيدته الطويلة «إرم» مقطع اسمه «بطاقات إلى ميادين المعركة» وهي سلسلة من القصائد القصيرة موجهة إلى المغني الزنجي بول روبنسون، وفيدل كاسترو وكريستوف غبانيا وثوار الفيتكونغ.

وفي قصيدته هذه، «الى ثوار فيتكونغ»، يقول:

أسمعُها تهدرُ ملءَ دمي

أسمعُها في الوديان، على الغاباتِ، على القممِ

أسمعُ صرخاتِ الأحرارِ وقهقهةَ الرشاشْ

أسمعُ غاراتِ الفاشستْ الأوباشْ

وأصيحُ أصيح بلا صوتِ:

الموتُ لآلهةِ الموتِ.

ولنلاحظ الآن، هذا الانتقال المذهل:

وأُحسُّ بكفي تتقلّصْ

وأَغيبُ لبرهةْ

وأحسّ كأني أتربّصْ

Twitter: @ketab_n

بذئابِ الغزوِ على أرضِ الجبهةْ
وأصبُّ على الأشباحِ النارَ .. وأبكي

ويعود في قفزة مماثلة:

من يجرعُ في باراتِ نيويورك الويسكي
من يلقي في المقهى حلوةْ
من ينشدُ في الشارع غنوةْ
من يحرثُ في أمريكا، من يزرعْ
من يحرثُ في فيتنام ويزرعْ
من يبقى في المصنع
من يبقى؟
يا آلهةَ الموتِ الحمقى في أمريكا
يا آلهةَ الموت الحمقى!

وفي هذا النطاق نجد قصيدة لراشد حسين عن آسيا «بلد الرجال الثائرين على مماطلة الزمان» وقصيدة أخرى لإبراهيم مؤيد اسمها «أنشودة زنجي» وهي قصيدة تدل على ولادة شاعر جيد، إلا إننا مع الأسف لم نعد نسمع عن إنتاج جديد له، وسنرى

Twitter: @ketab_n

عدداً كبيراً من القصائد، في هذا النطاق، لمحمود دسوقي، وقصائد ذات أهمية قصوى لحنّا أبو حنّا عن كوبا وعن إفريقيا المشرقة.

إن الالتزام بالبعد العالمي للمعركة كان دائماً من ميزات شعر المقاومة، ومع ذلك فإن هذا الالتزام لم يؤدّ إلى تمييع الالتزام بالصيغة المباشرة للنزال، ولكنه أغناه وأعطاه معنًى وعمقاً وحافزاً، عكْس تجارب كثيرة حدثت في الفترة الماضية في عدد من البلدان العربية.

بهذا المجال يجدر بنا أن نسجّل موقفاً لمحمود درويش الذي كان ديوانه الأول، «عصافير بلا أجنحة» في معظمه، غناء لثورات إفريقيا، والذي غنّى لثورات العالم بإخلاص وعمق وتلقائية تبعث على الإعجاب، والذي – أيضاً – قدم فيما أرى أجود رثاء عربي للشاعر الإسباني الثائر لوركا، نقول، مع ذلك كله ينظر محمود درويش نظرة واعية للمسألة كلها في قصيدته «عن الأمنيات»، حين يقول:

لا تقلْ لي :
ليتني بائعُ خبزٍ في الجزائرْ
لأغنّي مع ثائرْ
لا تقلْ لي :

Twitter: @ketab_n

ليتني راعي مواشٍ في اليمنْ
لأغنّي لانتفاضاتِ الزمنْ
لا تقلْ لي :
ليتني عاملُ مقهى في هفانا
لأغنّي لانتصاراتِ الحزانى
لا تقلْ لي :
ليتني أعملُ في أسوان حمّالاً صغيرْ
لأغنّي للصخورْ
يا صديقي!
أرضُنا ليستْ بعاقِرْ
كلُّ أرضٍ، ولها ميلادُها
كلُّ فجرٍ، وله موعدُ ثائرْ!

إن وعي الالتزام بحركة الثورة في العالم يكتسب قيمته مما يؤديه إلى وعي الالتزام بالثورة المحلية، وليس من كونه صيغة رومانسية ذات طابع تنصلي عن طريق المزايدة، وهذا الإدراك الذي عبر عنه أدب المقاومة العربي بوضوح ومباشرة وحسم يضع البعد الإنساني في المقاومة في مكانه الصحيح، الذي يشكل حافزاً

Twitter: @ketab_n

ومسؤوليةً، في آنٍ واحد.

يضع سميح القاسم هذا المبدأ كما يلي:

فهناك، في أعماقِ إفريقيا الجواري والعبيدْ
فجرٌ يمرّ بكفّه فوقَ الجباهِ الناحباتْ
ويصبُّ فيها النورَ والدمَ والحياةْ
وهناك في أعماق أمريكا الجريمةُ والتمزّقُ والضياعْ
طبلٌ يدقُّ بلا انقطاعْ
لمدينةٍ تُشرى وزنجي يُباعْ
وهناك، في الأفقِ القريبِ هناك في الأفقِ البعيدْ
ليستْ تُتمّ الأرضُ دورتَها بلا نصرٍ جديدْ
فاحملْ لواءك وامضِ في هذا الطريقْ
... أبداً على هذا الطريقْ
شرفُ السواقي أنها تفنى، فدى النهرِ العميقْ



ولكن الأمر يختلف، من حيث الكم والنوع، حين يتعامل أدب المقاومة مع واحد من أبعاده الأساسية، وهو البعد العربي.

Twitter: @ketab_n

إن طبيعة القضية الفلسطينية تضعها في مركز الوسط من التفاعلات العربية، وبالتالي فإن شعر المقاومة في فلسطين المحتلة يمكن أن يوصف بأنه الناطق بلسان تلك التفاعلات والمؤرخ لها.

في ديوان شعر المقاومة ليس بالإمكان مرور أي حدث عربي دون أن يؤرخ في ذلك الشعر، بل إن عدوان ١٩٥٦ على مصر كان نقطة تحول أساسية في تاريخ ذلك الشعر، وكذلك كانت ثورة الجزائر، وثورة اليمن، وبناء السد العالي وفي هذا النطاق بالذات تبدو ولاءات المقاومة العربية والاجتماعية ممتزجة بصورة عضوية لا تحتمل الفكاك.

سنجد في قصيدة «بطاقة إلى الأسطى سيد» لسميح القاسم نموذجاً مختصراً وكافياً لما نقصده:

يا أسطى سَيَدْ!

إبنِ وشَيِّدْ

شيِّدْ لي السدَّ العالي

شيِّد لكْ

أطفىءْ ظمأ الغيظِ العالي

وامنحْنا

Twitter: @ketab_n

وامنحْ أهلَك

كوباً من ماءْ

وخضاراً وزهوراً وضياءْ

يا أسطى سيّدْ

أزُفّ الموعِدْ

والقرية في الصحراءِ العطشى تحلمْ

والبذرةُ في الثلم الصابرِ تحلمْ

فادفِنْ أشلاءَ القمقمْ

في أشلاءِ الصخرِ المتحطمْ

وابنِ وشيِّدْ

يا أسطى سيّدْ

باسمِ ضحايا الأهرامِ وباسمِ الأطفالْ

إبنِ السدّ العالي !

يا صانعَ حلمِ الأجيال!

إن الاختلاط شديد الوعي، في مهمة الأسطى سيّد، حيث لا يعرف القارىء لمن يبني السدّ العالي، لضحايا الأهرام أم للأرض العطشى، أم للجيل العربي الأسير في فلسطين المحتلة، يذكرنا

Twitter: @ketab_n

بشيء مماثل في قصيدة أخرى لسميح القاسم نفسه، عن صنعاء، غداة الثورة، حين يغني لصحرائه ولمستقبله.

الشيء ذاته نلحظه في شعر محمود درويش، فهو يبدأ قصيدة طويلة له عن «الأوراس» كما يلي:

بيتي على الأوراس كان مباحاً

يستصرخُ الدنيا مساءَ صباحاً

وترابُ أرضي من دمي معشوشبٌ

كي يشربَ الغرباءُ منه الراحا

ثم يقول في القصيدة ذاتها:

فالوحشُ يقتلُ ثائراً

والأرضُ تُنبتُ ألفَ ثائرْ

يا كبرياءَ الجرحِ! لو متنا

لحاربتِ المقابرْ!

فملاحمُ الدمِ في ترابِكِ

ما لها فينا أواخرْ

حتى يعودَ القمحُ للفلاحِ

يرقصُ في البيادرْ

Twitter: @ketab_n

ويقول:

أوراس! يا «أولمبنا» العربي

يا ربَّ المآثرْ

إنّا صنعنا الأنبياء على سفوحِكَ

والمصائِرْ

أوراسُ! يا خبزي وديني

يا عبادةَ كل ثائرْ

ويمضي محمود درويش في قصيدة أخرى اسمها «نشيد للرجال» إلى تحديد أكثر لهذا البعد في موقفه:

سنخرجُ من معسكرنا

ومنفانا

سنخرجُ من مخابينا

ويشتمُنا أعادينا:

«هلا! همجٌ هُمُ، عربُ»!

نعمْ!

عربُ

ولا نخجلْ

Twitter: @ketab_n

ونعرفُ كيف نُمسك قبضةَ المنجلْ

وكيف يقاومُ الأعزلْ

ونكتب أجمل الأشعار!

إنه من الجدير بالتسجيل أن سميح القاسم كان أول شاعر عربي يغني لثورة «الذئاب الحمر» في ردفان غداة تفجرها، مدركاً بعدها العميق ومعناها:

حمتْ سراياك! فاشربْ من سرايانا

كأساً جرعت بها للذلِّ ألوانا

واشحذْ مداك على الجرحِ الذي عصفت

دماؤه بقلاعِ البغي نيرانا

أركانُ عرشِك آلينا نقوضها

فاحشدْ فلولَك حياتٍ وعقبانا

يا طامعاً بالذئابِ الحمرِ، ما غنمت

أطماعُك السودُ، إلا بعضَ قَتلانا

بلادُنا القدَرُ المحتومُ قاطنها

مذ كانت الشمسُ، ما لانت وما لانا

Twitter: @ketab_n

يا عابدَ النارِ! ما زالت مؤرثة

على القنال... فماذا تعبد الآنا؟

وفي ذلك الوقت كتب سميح القاسم قصيدة أخرى اسمها «عروس النيل» عن السد العالي كمظهر نضالي:

اسمعه.. اسمعه!

عبر فيافي القحطِ في مجاهلِ الأدغال

يهدرُ، يدوي، يستشيط

فاستيقظوا يا أيها النيامْ

ولنبتنِ السدودَ قبلِ دهمةِ الزلزالْ

تنبهوا.. بهذه الجدران

تنزل فينا من جديدٍ نكبةُ الطوفان

وفي الوقت أبكر بكثير من التاريخ الذي كتب فيه سميح القاسم ومحمود درويش هذه القصائد، كان البعد العربي موجوداً بعمق في موقف المقاومة، نذكر هنا قصيدة قديمة (١٩٥٨) لشاعر من الأرض المحتلة اسمه عصام عباسي:

هذي بساتيلُ العراقِ

Twitter: @ketab_n

تهدّها كتلُ الحشودِ

بغدادُ يا بلدَ الرشيدِ

أتيتُ بالفعلِ الرشيدِ

وينتقل الشاعر، في قصيدته نفسها، في جولة في البلاد العربية جميعها يقدم من خلالها موقفاً تقدمياً مسؤولاً، لا يخضع للافتعالات الرومانسية التي تؤدي غالباً إلى الاحتيال على الذات.

ولجمال قعوار[٦٣] قصيدة عن الجزائر اسمها «هذي الطريق» تتضمن ذلك الموقف المسؤول بوضوح. والواقع أن ثورة الجزائر فجّرت نوعاً فريداً من الشعر في فلسطين المحتلة، وأوقدت حوافز جديرة بالتأمل.

فالشاعر حبيب قهوجي الذي غنى قبل ذلك لثورة مصر ومعركة ١٩٥٦ فاتحاً المجال أمام انعطاف جذري في شعر المقاومة قفز به نحو التصدي المباشر لموضوعاته الأساسية، يقول في قصيدة عن الجزائر:

---

(٦٣) ولد في الناصرة عام ١٩٣٠، يعمل مدرساً الآن، له شعر جيد وهو يهتم بالنقد. ومن المعتقد أنه كتب بعض القصص القصيرة. تثير مقالاته وآراؤه الأدبية جدلاً في الوسط الثقافي العربي في الأرض المحتلة.

Twitter: @ketab_n

دمُ الأحرارِ لم يذهبْ هباءٍ

بمعتكرِ الدجى أُمسى شهابا

تقدّسُه شعوب الشرق طُرّا

وتبذلُ دونَ حرمتِه الشبابا

ثم يقول:

فيا شعب العراق، إلام نومٌ

يحدٌّ تمرد الطغيانِ نابا

فدونَك في الجزائر كيف تمحى

جيوش البغي تعطينا ضرابا

إن هذا النداء المباشر للعراق، لتفجير الثورة التي انفجرت بالفعل فيما بعد، في سنة ١٩٥٨، قد حدا بالشاعر نفسه في وقت لاحق للمشاركة في إنشاء حركة "الأرض" التي لعبت دوراً أساسياً في المقاومة داخل فلسطين المحتلة.

في تلك المرحلة بالذات التي امتدت من ثورة مصر في عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٠، كان الشعر الغالب في الأرض المحتلة هو الشعر الملتزم بالصيغة الكلاسيكية من حيث الشكل، وبما يشبه

Twitter: @ketab_n

الخطابية من حيث النبرة، منسجماً في ذلك مع الزلزال الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي كان يجتاح المنطقة العربية، في الوقت نفسه الذي كان ينسجم فيه مع مرحلة أولية من مراحل تطوره ونشوئه.

في تلك الفترة بالذات غنى شعراء عرب عديدون ثورة الجزائر، فبالإضافة للشعراء الذين ذكرناهم توجد قصائد طويلة لراشد حسين وأبي إياس، ومحمود دسوقي وجمال قعوار وحنا أبو حنا، وابن الرامة، وعصام عباسي، وفوزي الأسمر، وغيرهم،[٦٤] ولكن مما لا ريب فيه أن محمود دسوقي قد دخل إلى تفاصيل التفاصيل، بكل شيء يتعلق بالعرب، أكثر من سواه.

طابع تلك المرحلة يلخصه راشد حسين في قصيدته:

سنُفهمُ الصخرَ إنْ لم يفهمِ البشرُ
أن الشعوبَ إذا هبَّتْ ستنتصرُ
دمُ الجزائرِ صدرُ الفجرِ كعبتُه
وناره فوقَ صدرِ البغي تستعرُ

ويقول حنا أبو حنا في قصيدة طويلة اسمها «رسالة» من

---

(٦٤) راجع مقالًا حول الموضوع بقلم فوزي الأسمر في مجلة «الفجر»، العدد ١٠ (أيلول/ سبتمبر ١٩٦٠).

Twitter: @ketab_n

مناضل جزائري إلى ولده:

ولدي! لأجلكِ قد حملتُ سلاحي

ولأجلِ رغدِك ثورتي وكفاحي

ورأيتُ شعبي سيلَ نارٍ دافقٍ

متوثبٍ في موكبِ الأرياحِ

وإذا اللهيبُ، بريقُ عينِك ساطعاً

وعيونُ شعبي الثائرِ الطمّاحِ

فلأجلِ تحريرِ الجزائرِ ثورتي

ولأجلِ رغدِك وثبتي وكفاحي

ولكن، كما رأينا، فإن الصياغة الفنية، التي جاءت في هذه المرحلة على هذه الصورة الخطابية لم تكن على حساب المضمون، ولقد استطاعت تجارب شعراء المقاومة، من خلال الممارسة، أن تطور الشكل إلى الصيغة المعاصرة الحديثة، وفي هذا النطاق جرى التطوران: الشكل والمضمون، في اتساق وانسجام ولم ينحر أحدهما الآخر، فيما ظلت جذور الالتزام والمعاداة في أصلها هي الرابط الجوهري في هذا التطور.

وعلى هذا الأساس، تلقى شاعر مثل توفيق زياد كارثة الخامس

Twitter: @ketab_n

من حزيران/يونيو ١٩٦٧ مرة أخرى على هذا الصعيد، بثبات:

ثم.. ماذا بعدُ؟ لا أدري، ولكنْ

كلُّ ما أدريه أن الأرضَ حبلى والسنون..

ثم يقول:

فارفعوا أيديكُم عن شعبِنا

لا تُطعموا النارَ حطبْ

كيف تحيَون على ظهرِ سفينهْ

وتعادون محيطاً من لهب؟

وينتهي إلى القول:

كبوةٌ هذي

وكم يحدثُ أن يكبوَ الهمامْ

إنها للخلف كانتْ

خطوةٌ

من أجلِ عشرٍ للأمام!

وفي الحقيقة، فإن البعد العربي في الأدب الفلسطيني كان

Twitter: @ketab_n

دائماً ظاهرة أساسية. وليس ارتباط أدب المقاومة الفسلطيني الراهن بهذا البعد، وتعميقه ووعيه، إلا استمراراً لتلك الظاهرة تاريخياً، ولكن هذه الملاحظة هي عنوان لموضوع آخر.

لقد رأينا، باختصار، أولاً كيف يرتبط أدب المقاومة في فلسطين المحتلة إلى بعد اجتماعي ويطرح ولاءه للطبقة الكادحة التي على أكتافها تعلق المقاومة بنادقها ومصيرها.[٦٥]

ورأينا، ثانياً، كيف يحافظ أدب المقاومة على هذا الارتباط الاجتماعي التقدمي في ممارسته لبعد آخر من أبعاده وهو بعد الالتزام بالثورات التحررية في العالم.

ورأينا، ثالثاً، كيف يرتبط أدب المقاومة ببعده العربي ارتباطاً عضوياً راسخاً، دون أن يفقد وضوح نظرته الاجتماعية في هذا الارتباط، ومع إدراك عميق لمعناه وضرورته وأصالته.

ورأينا أن هذه الارتباطات تحدث ضمن إطار من الالتزام بقدسية الكلمة والإيمان الذي لا يتزعزع بدورها وقيمتها والتمسك

---

(٦٥) يجدر بنا أن نلاحظ أن الغالبية الساحقة من عرب الأرض المحتلة الذين يبلغ عددهم أكثر من ٣٠٠ ألف نسمة (دون الأراضي التي احتلت في حزيران/يونيو ١٩٦٧) هي من الفلاحين، والشعراء أنفسهم الذين يتوجون أدب المقاومة في فلسطين المحتلة جاؤوا من الريف، والواضح – سياسياً وقومياً – أن سكان الريف الفلسطيني المحتل هم الذين بادروا إلى النضال الوطني وتحملوا القسط الأوفر من مسؤولياته ونتائجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية (راجع: «العرب في فلسطين»، بقلم المحامي صبري جريس).

Twitter: @ketab_n

بمسؤولياتها كسلاح أساسي في حركة المقاومة التي تشمل معنى أوسع بكثير من مجرد المقاومة المسلحة.

ولكننا قلنا أيضاً إن هذه الارتباطات الثلاثة، في إطارها من الالتزام الفني المسؤول، تظل تدور حول محور أساسي هو التصدي الشجاع للمعركة المباشرة، اليومية والقاسية والباهظة الثمن، مع العدو المحتل الذي يجثم بثقل مباشر على صدر الوجود العربي، في فلسطين المحتلة.

فكيف يعبرّ أدب المقاومة عن هذه المسؤولية المباشرة، وكيف يخوض معركتها، دون أن يفقد ارتباطاته الاجتماعية والعربية والدولية؟

إن أدب المقاومة في هذا النطاق، غزير الإنتاج، وإذا كانت الظروف التي يعرفها الجميع تحول دون تعقب دقيق لحركة الإنتاج هذه على جميع المستويات، فإن ما يتوفر بين أيدينا الآن يكفي كنموذج.

لقد رأينا كيف تصدى توفيق فياض في مسرحيته "بيت الجنون" من خلال صيغة فنية متقدمة إلى المهمة المباشرة للمقاومة، حين تخلص من تشوشه في لحظة مواجهة ناصعة الوضوح، قرر فيها، مباشرة وبحسم، أنه لن ينسى، وأنه يرفض الاقتحام المعادي، وأنه

Twitter: @ketab_n

سيقاتل وحده.

سنرى محمود درويش في لحظة مواجهة مماثلة، تشكل نوعاً فذاً من الصحو الدائم، حين يقول، رافضاً التنصّل مهما كانت براعة الصياغة:

ذليلٌ أنت كالأسفلت

ذليلٌ أنت

يا من يحتمي بستارةِ الضجر !

وثمة لحظة مماثلة، عند سميح القاسم:

... وأخافُ، أخافُ من الغدرِ

من سكينٍ يُغمدُ في ظهري

لكني.. يا أغلى صاحبْ

يا طيّبَ.. يا بيتَ الشعرِ

رغمَ الشكِ، ورغمَ الأحزانْ

أسمع أسمع وقع َخطى الفجرِ

عبر هذا الصحو، الذي يعي تماماً جوهر المواجهة، وقف شعر المقاومة العربي في فلسطين المحتلة مؤرخاً ليوميات المقاومة

Twitter: @ketab_n

الجماهيرية، جاعلاً من انتكاساتها وعذابها وقوداً لتجديد توق ملتهب.

في قصة قصيرة لفوزي الأسمر، اسمها «رمال ودموع» يروي هذا الكاتب الشاب، الذي ولد وعاش في بلدة اللد، قصة عربي حاول قتل سائق تراكتور إسرائيلي، والمعضلة بالنسبة للمحكمة هي أن السائق الإسرائيلي لا يعرف ذلك العربي، ولم يسبق له أن قابله ولا يعرف سبباً للمحاولة.

بالنسبة للعربي فإن المسألة لها تفسير ومبرر، فقد شهد عن بُعد ذلك السائق يربط جذع شجرة زيتون كان يملكها، وترمز بالنسبة له إلى تاريخ عائلته، محاولاً انتزاعها من أرضها، وحين اندفع نحوه ليقتله كان في الواقع يرمي إلى الدفاع عن عرضه وشرفه.

وتنتهي القصة نهاية مفاجئة حين ترفع المحكمة جلستها لتدارس الحكم الذي ستصدره على العربي.

وهذه "النهاية – الإشكال"، هي موقف واضح ومن نوع حاسم، فحكم المحكمة لا يهم على الإطلاق، وأساس القضية موجود ومحلول – في القصة نفسها، والنهاية هي أبعد ما تكون عن علامة الاستفهام التي يخيّل للقارىء أنها موجودة في السطر الأخير منها.

Twitter: @ketab_n

لا توجد علامة استفهام في هذا الصدد، وإن كانت القصائد والقصص والمسرحيات التي أنتجها أدباء المقاومة تحفل بها من حيث الشكل، إلا إنها لا تعني إلا نوعاً من «الاستفهام الذاتي»، إذا جاز التعبير، غايته الأساسية التأكيد بأنه يوجد جواب واحد فقط.

لقد رأينا نموذجاً لهذا «الاستفهام الاثباتي» في النماذج التي قرأناها من مسرحية توفيق فياض «بيت الجنون» وهو استفهام – كما قلنا – لا يقصد إلى التساؤل بقدر ما يقصد إلى إثبات أنه لا يوجد أي طريق آخر.

وهو استفهام من نوع:

ثم ماذا بعد ؟ لا أدري! ولكن

كل ما أدريه أن الأرض حبلى.. والسنون

كما يقول توفيق زياد في قصيدته «كلمات عن العدوان» التي كتبها في أعقاب حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧.

وهو تساؤل من ذلك النوع الذي ضمنه حبيب قهوجي في رثاء كتبه عام ١٩٥٧ لشهداء كفر قاسم:

جنكيز خان تثاءبت أيامُه؟

أم جندُ هتلرَ للدمارِ ضواري؟

Twitter: @ketab_n

وتتكرر الصيغة نفسها، في قصيدة أخرى، لراشد حسين في ذلك الوقت، يرثي فيها شهداء قرية صندلة:

مرج ابن عامر، هل لديك سنابلُ

أم فيك من زرعِ الحروبِ قنابلُ؟

أم حينما عزّ النباتُ صنعتَ من

لحمِ الطفولةِ غلةً تتمايلُ؟

ويطور محمود درويش هذه الصيغة إلى درجة حاسمة:

يا وجهَ جدي!

يا نبياً ما ابتسمْ

من أيِّ قبرٍ جئتني

ولبستَ قمبازاً بلونِ دمٍ عتيق

فوق صخرةْ

وعباءةً في لونِ حفرةْ؟

يا وجهَ جدّي!

يا نبياً ما ابتسمْ

من أيِّ قبرٍ جئتَني

لتحيلَني تمثالَ سمّ؟

Twitter: @ketab_n

الدين أكبر!

لم أبغْ شبراً، ولم أخضعْ لضيَمْ

لكنهم رقصوا وغنّوا فوق قبرك

فلتنمْ!

صاحٍ أنا، صاحٍ أنا، صاحٍ أنا

حتى العدم..

ولكن بعيداً عن هذه المسألة الجزئية التي توقفنا عندها بسبب تكرارها وترددها في شعر المقاومة، فإننا نلاحظ ظاهرة هامة عامة، وهي توفر درجة متقدمة من التحدي الواعي، القادر على تحويل العذاب إلى حافز ثوري.

لقد لاحظنا ذلك بوضوح في القصائد التي كتبها شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة في أعقاب العدوان الأخير، ولكن هذه الظاهرة في الحقيقة تأخذ طابع القاعدة، سواء في مواجهة العذاب الشخصي، أو الجماعي، نهاية بالمستوى القومي.

فمن السجن كتب محمود درويش أروع قصائده وأكثرها توهجاً بالأمل والإصرار والتحدي، وهي قصيدة تذكّرنا برسالة حنا أبو حنا التي بعث بها حين كان سجيناً في الرملة عام ١٩٥٨، يقول

Twitter: @ketab_n

محمود درويش:

من آخر السجن طارت كفُّ أشعاري

تشدُّ أيديكمُ ريحاً على نارِ..

أقولُ للمحكمِ الأصفادِ حول يَدي:

«هذى أساورُ أشعاري وإصراري»

في حجم مجدكم نعلي، وقيدُ يدي

في طولِ عمركمُ المجدولِ بالعار..

في اليومِ أكبر عاماً في هوى وطني

فعانِقوني عناقَ الريحِ للنارِ!

يقول ذلك لأنه يؤمن أن:

المغني على صليبِ الألمْ

جرحُه ساطعٌ كنجمْ

قال للناس حولَه:

كل شيءٍ، سوى الندم..

هكذا متّ واقفاً

واقفاً متّ كالشجر!

Twitter: @ketab_n

ولسميح القاسم قصيدة اسمها «رسالة من المعتقل»:

أمّاهُ ! كم يؤلمُني!

أنكِ تجهشين بالبكاءْ

إذا أتى يسألكم عنّي أصدقاء..

لكنني أومن يا أماهْ

أومنْ

أن روعةَ الحياة

تولدُ في معتقلي

أومن أن زائري الأخيرَ لن يكون

خفاشَ ليلٍ

مُدلجاً، بلا عيونْ

لا بدّ أن يزورَني النهارْ..

وللقاسم قصيدة طويلة من أربعة أناشيد عنوانها الرئيسي «من وراء القضبان». وقد حالت الظروف دون معرفة النشيدين الأوسطين في هذه القصيدة اللذين صودرا ومُنعا بالقوة، ولكن المناخ العام للنشيد الأول والأخير يثبتان ما ذهبنا إليه.

هذا على صعيد شخصي.. أما على صعيد جماعي فقد غنى

Twitter: @ketab_n

شعراء الأرض المحتلة الأحداث اليومية التي مر بها شعبهم الأسير، وقد رأينا قبل قليل كيف سجل حبيب قهوجي وراشد حسين مجزرتي كفر قاسم وصندلة، ورأينا أمثلة أخرى في قصص زكي سليم درويش، وعطا الله منصور، وفوزي الأسمر. وسجّل الشعر الشعبي بدوره أحداثاً يومية[٦٦] وتصدّى للعملاء في نوع من التشهير الذي كبلهم وشل نشاطهم فعلاً، وكذلك في حالات رثاء وتشجيع.[٦٧] وقد تابع محمود درويش قضية النازحين بصورة فريدة، ونظم سميح القاسم عدة قصائد عن مجزرة كفر قاسم، واحدة منها لا نعرف إلا مطلعها، وحال الحكم العسكري الإسرائيلي المفروض على العرب دون وصول آخرها، أما قصيدته الثانية، عن كفر قاسم. التي ألقاها في تجمّع شعبي ذهب إلى القرية المنكوبة للعزاء في الذكرى العاشرة وحال الجنود الإسرائيليون دون وصولهم إلى القرية، فقد أدت إلى تظاهرة شعبية عنيفة.

---

(٦٦) في الجانب المحتل من قرية «بيت صفافا» تشيع زغرودة أثناء الأعراس تقول:

«وين أم العرب، مالي لا أريها
في عرس ابنها تيجي أهنيها
واقفي قبالي
ومش قادرة أحاكيها»

فترد زغرودة أخرى في الجانب العربي من القرية المشطورة ذاتها، في حوار يتجاوز الأسلاك بصورة رمزية فريدة، وهذا – على أي حال – موضوع آخر.

(٦٧) راجع «أدب المقاومة، في فلسطين المحتلة»، للمؤلف.

Twitter: @ketab_n

وبالنسبة لمجزرة كفر قاسم فقد شكلت نقطة انعطاف أساسية في الموقف المقاوم لشعراء الأرض المحتلة العرب، إذ من النادر ألا يأتي ذكر كفر قاسم كشهادة دائمة على المقاومة.

لمحمود درويش، كما رأينا، أناشيد كاملة في ديوانه الأخير «آخر الليل» عن كفر قاسم باسم «أزهـار الدم» يخاطب فيها الشهداء الخمسين الذين جزروا في تلك القرية عشية العدوان الثلاثي على مصر، وفيها يتحول الشهداء الخمسون إلى أوتار تعزف صمود الشاعر:

لمغنيك على الزيتون، خمسون وترْ

ومغنيك أسيراً كان للريحِ

وعبداً للمطرْ..

ومغنيك الذي تابَ عن النومِ

تسلّى بالسهرْ

سيسمّي طلعةَ الوردِ، كما شئتِ: شررْ!

سيسمّي غابةَ الزيتون في عينيكِ:

ميلادَ سَحَرْ!

وسيبكي، هكذا اعتادَ،

إذا مرَّ نسيمٌ فوقَ خمسين وترْ

Twitter: @ketab_n

آهِ! يا خمسينَ لحناً دموياً
كيف صارت بركةُ الدمِ نجوماً وشجرْ؟
الذي مات هو القاتلُ، يا قيثارتي
ومغنيك انتصرْ

ثم يقول:

كفر قاسم!
إنني عدتُ من الموتِ لأحيا، لأغني
فدعيني استعر صوتيَ من جرحٍ توهّجْ
وأعينيني على الحقدِ الذي يزرعُ في قلبي عَوْسَجْ
إنني مندوبُ جرحٍ لا يساومْ
علمتني ضربةُ الجلاّدِ
أن أمشي على جرحي
وأمشي، ثم أمشي، وأقاوْم!

ومثلما عاد محمود درويش في قصيدته هذه إلى «كفر قاسم» بعد عشر سنوات من المجزرة، يعود سميح القاسم – بعد عشر سنوات أيضاً – إلى المكان ذاته في ديوانه «دمي على كفي»:

Twitter: @ketab_n

... وزهيرات من البرقوقِ في صدرِ امرأةْ
وعيونٌ مطفأهْ
وعويل غارق في رهبةِ المأساةِ عائمْ
وأنا ريشةُ نَسْرٍ
في مهبّ الحزنِ والغيظ:
إله لا يساومْ!
يومَ قالوا: سقطوا قتلى وجرحى
ما بكيتْ!
قلتُ: فوجٌ آخر يمضي
ومن بيتٍ لبيتْ
رحتُ أروي نبأ الغلّةِ في العامِ الجديدْ
ومن المذياعِ أنباءٌ عن العامِ المجيدْ:
مصرُ بركانٌ، وكلُّ الشعبِ يحمي بور سعيدْ
أيها الأخوة، والنصرُ أكيدْ...
يوم قالوا: سقطوا قتلى وجرحى
صحتُ، والأدمعُ في عينيَ: مَرْحى
ألفُ مرحى!
يومَ قالوا، ما بكيتْ

Twitter: @ketab_n

ومضتْ بضعةُ أيامٍ على عيد الضحايا

وأتيتُ...

وتلقّاني بنوكِ البسطاءْ

وتلوَنا الفاتحةْ

وعلى أعينِ أطفالِكِ

يا أمَّ العيونَ الجارحةْ

يَبِسِ النهرُ وماتتْ في أغانيِّ الحمائمْ

وأنا، يا كفر قاسمْ

لا أنشدُ للموتِ، ولكنْ:

ليدٍ ظلّتْ تقاومْ!

ولحنا أبو حنا قصيدة طويلة عن كفر قاسم أيضاً، قالها بعد عامين من المجزرة، أبرز مقاطعها:

كيف العزاءُ؟ وكيف يسلو الويلَ شعبٌ ثاكل؟

عصفت بروحتِهِ الخطوبُ وصارعته نوازل

ما زال يحملُ جرحَه في صدرهِ.. ويطاول

وتسيرُ في دربِ الدماءِ، على خطاه، غوائل

... إن السبيلَ إلى العزاءِ تكاتفٌ وتكافل

Twitter: @ketab_n

ونداء أرواحِ الضحايا: فليهبَّ الغافل!



ولهؤلاء الشعراء، الدرويش والقاسم وأبو حنا، قصائد عن الحكم العسكري كقضية يومية يعاني عرب الأرض المحتلة منها، وعن الجواسيس الذين يندسون في التجمعات العربية، وعن سلب الأراضي من الفلاحين العرب، وإلى آخر ما هنالك من قضايا يومية.

ولسميح القاسم بالذات قصيدة لافتة للنظر: «كرمئيل»، وهو اسم المدينة التي ابتناها الإسرائيليون في الجليل، فوق أراض سلبوها من عرب قرى دير الأسد والبعنة ونحف، ضمن خطتهم لتهويد الجليل.. وقد أطلق القاسم على هذه المدينة اسم «مدينة الحقد والجوع والجماجم»:

صباحَ مساءْ

يطالعُنا وجهُها والسماءْ

ونبسمُ، لا بسمةَ الأغبياءْ

ولكنها بسمةُ الأنبياءْ

تحداهمُ صالبٌ تافهٌ

Twitter: @ketab_n

يغطي الشموسَ ببعضِ رداء ..

غداً يا قصوراً رستْ في القبور

غداً يا ملاهي

غداً يا شقاءْ

سيذكرُ هذا الترابُ سيذكر

أنّا منحناهُ لونَ الدماءْ

وتذكرُ هذي الصخورُ رعاةً

بَنوها بأدعيةٍ من حداء

ونذكُر أنّا ..

هنا سِفرُ تكوينِهم ينتهي

هنا، سفرُ تكويننا، في ابتداءْ!

إن الأمثلة في هذا النطاق أكثر من أن تحصى، وتتوفر منها لدينا كمية هائلة باتت تدعو بإلحاح إلى إصدارها في ديوان يضم شعر المقاومة، الظاهرة الأكثر توهجاً ومعنى في حياتنا الثقافية الراهنة.

Twitter: @ketab_n

لقد كان شعر المقاومة، وأدبها على العموم، متفائلاً منذ البدء، ولم يكن هذا التفاؤل ضرباً في الفراغ، أو وهمّاً مقامراً، وإلا لتصدع خلال عشرين سنة من الأسر والعذاب، ولكنه كان نتاجاً معافى وشديد المراس لإدراك عميق لأبعاد المعركة وانتساباً أصيلاً لجماهيرها الحقيقية وقضاياها، هدف المقاومة وأداتها في آن واحد.

لقد انطلق شعر المقاومة من أرض الالتزام ومن التزام الأرض، وكشف عن طريق الممارسة والمواجهة أعماقه وأبعاده، وحقق في هذا النطاق – برغم كل المصاعب التى لا تصدق – توهجاً فخوراً من حيث المضمون والشكل على السواء، يضعه بلا تردد في مقدمة الحركة الثقافية العربية الراهنة.

ولذلك فإن أدب المقاومة، وقد ربط نفسه إلى أصوله وعرف آفاقه والتزم بارتباطاته الأصيلة، لم يعرف ظاهرة التخلي، ولا التنصل، ولا العتاب والعويل، كان يمارس إدراكه لدوره ومسؤولياته، ولا يحجب نفسه عنها وراء «ستارة الضجر» أو المزايدة الرخيصة أو المزاح الذي تزلزله أصغر ريح، فهو لم يكن رفاهاً، ولكنه كان دائماً «التزاماً» بالسلاح والجمال والمثل، معاً.

وهذا وحده الذي يجعل شاعراً مثل محمود درويش، وحده

Twitter: @ketab_n

تقريباً في قارتنا العربية الشاسعة، يتلقى كارثة الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧ بثبات وصمود ويجعلها حافزاً:

وطني!

يعلّمني حديدُ سلاسلي

عنفَ النسور

ورقّةَ المتفائل..

ما كنتُ أعرفُ أن تحتَ جلودِنا

ميلادَ عاصفةٍ

وعرسَ جداولِ!

سَدّوا عليَّ النورَ في زنزانةٍ

فتوهّجتْ في القلبِ

شمسُ مشاعلِ

كتبوا على الجدرانِ رقمَ بطاقتي

فنما على الجدرانِ

مرجُ سنابلِ

وحفرتُ بالأسنانِ رسمَك دامياً

وكتبتُ أغنيةَ الظلامِ الراحلِ

أغمدتُ في لحمِ الظلامِ هزيمتي

Twitter: @ketab_n

وغرزتُ في شعرِ الضياءِ أناملي

والفاتحونَ على سطوحِ منازلي

لم يفتحوا إلا وعودَ زلازلي

لن يبصروا إلا توهجَ جبهتي

لن يسمعوا إلا صريرَ سلاسلي

فاذا احترقتُ على صليبِ عبادتي

أصبحتُ قديساً

بزيٍّ مقاتلِ!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

نماذج من
الشعر والأقصوصة والمسرحية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الشعر

حنا أبو حنا[٦٨]

طفل من شعبي

مهداة إلى ذلك الطفل وصديقه، اللذين تعاونا فرفع أحدهما الآخر ليطل على شباك غرفة سجين، وغالب العتمة في الداخل حتى رآني، فحيّاني ثم قذف في داخل الغرفة بهذه الكلمات:

تخفش منهم.. كن شجاع!

خلفَ القضبانِ، من الشبّاكِ يطلُّ جبينْ

كهلالِ طفل (هلَّ) عليَّ

وضاحِ الإشراقِ فتيّ

---

(٦٨) ولد حنا أبو حنا عام ١٩٢٨ في قرية الرينة قرب الناصرة، ودرس في الكلية العربية في القدس. عمل في التعليم، ثم في صحيفة «الاتحاد» ومجلة «الجديد»، ويقوم الآن بتعليم الأدب العربي في الكلية الأرثوذكسية في حيفا. له بحوث أدبية ونقدية، ويعتبر من الرعيل الطليعي المعلم، وعلى يديه وبشعره تتلمذ معظم شعراء المقاومة العربية في فلسطين المحتلة.

Twitter: @ketab_n

كالنعنعِ غض، كالريحانِ شذاه حنونْ
خلفَ القضبانِ يطلُّ جبينْ
وتشعُّ تفتشُ في حلَكِ الدهليزِ عيونْ
وترفُّ كأجنحةٍ بيضاءْ
وتحوِّمُ في عزمٍ ومضاءْ
تتحدّى العتمةَ، تبحثُ عن آثارِ سجينْ
خلفَ القضبانِ تشعُ عيونْ
عينا طفلٍ لما يتجاوزْ عشرَ سنينْ
يتسلّقُ شبّاكَ السجنِ
ويطلُّ لكي يبحثَ عني
ويفيضُ على أفقي الساجي أملاً وحنينْ

وأنا في زاويةِ الغرفةْ
أرقبُه وفي قلبي لهفةْ
وتساورُني في الأمرِ ظنونْ:
هل جاءَ به عبثٌ وشجونْ؟
وتطفُّلُ طفلٍ في أن يبصرَ شكلَ سجينْ؟
أو أُرسل يبلّغُني أمراً

Twitter: @ketab_n

يتسلَّقُ شباكي سراً
كحمامةِ يُمنٍ يحملُ لي بشرى وشؤونْ؟
(فالشعبُ يحبِّذُ بنضالِهْ
عوناً من فيلقِ أطفالِهْ
يرسلهُم كحمامٍ زاجِلْ
وكتائبَ تسعى، وتُنازِلْ)
يا طيرُ بشباكي، ما تحملُ، يا غصنَ الزيتونْ؟

وصمتُّ أراقبُ عينيهِ
وتشبثَ قوةِ كفيهْ
بضلوعِ الشباكِ الأخضرْ
كمخالِبِ نَسرٍ لا يُقهرْ
وأنا أترقَّبُ.. ما سيكونْ؟
ويوشوِشُ صوتٌ في قلقٍ: هل تبصرهُ؟
هل تبصرهُ؟
فيردّ بوشوشة بَرِماً: لا أبصرهُ
فظلامُ الغرفةِ يسترهُ
ويعودُ يحدِّقُ في عزم

Twitter: @ketab_n

ويسودُ سكون

وترفرفُ، تلمعُ، في حَلكِ الدهليزِ، عيونْ

ويوشوشهُ الصوتُ الأول:

ما بالك لا تبصرُ؟ إنزلْ

إنزلْ وارفعني أنتَ على كتفَيك

عيناي أنا في العتمةِ خيرٌ من عينيك

إرفعْني، سوفَ أراهُ أنا..

ثبِّتْ قدميْك.

لكن ظلّ على الشبّاكِ يطلُّ شجين

يتحدّى العتمةَ، يبحثُ عن آثارِ سجين.

وتمرُّ على الصمتِ ثوانِ

تتألَّقُ فيها العينانِ

ويغرِّدُ في فرحٍ صوتُه:

- أبصرتُهُ..

إني أبصرتُه!

في الزاويةِ هناك توارى

Twitter: @ketab_n

يجلسُ ويطاردُ أفكاراً

وعلى الطاولةِ الصفراءْ

بعضُ الصحفِ، وصحنُ حساء

ورغيفٌ أسودُ لم يؤكلْ

وسجايرُ بقيتْ لم تُشعَلْ

وأراهُ هناك يبتسمُ

ويلوحُ بيُمناه قَلَمُ

حيّى، فأجبتُ تحيّتهُ

وكسا بالقوّةِ طلعتهُ

وبصوتٍ سحريِّ الإيحاءْ

منحوتٍ من ماسٍ وضّاءْ

هتفَتْ شفتاه:

اصمدْ، لا تخشَهُمُ أبداً

وتشجّعْ لا ترهبْ أحداً

اصمدْ فالنصرُ لمَن صمدا

وتدفّق في الغرفةِ حولي شلاّلُ رنينْ

Twitter: @ketab_n

شلّالُ أحاسيسٍ هدّارْ
ينصبُّ على قلبي معطارْ
يتدفّق فيه الشعرُ فنونْ

وانطلقَ الطفلُ كطيرٍ طار عن الشبّاكْ
وسكنتُ تقيدني أفكاري دون حراكْ
ويعربدُ في الغرفةِ حولي شلالُ رنينْ
ومشاعر جامحةٌ حولي شتى وشجونْ

طفلٌ؟
بل هو جيلُ الفجرِ
وبشائرُ ألويةِ النصرِ
وربيعٌ يعبقُ بالزهرِ
يتحدّى أعشابَ الشرِّ
ويميس بأردانِ العطرِ
في حقلِ المأساةِ المرِّ
ويصونُ الأشواكَ ليدمي كفَّ الباغينَ!

Twitter: @ketab_n

طفلٌ من شعبي.. يا مرحى..

طفلٌ؟

بل هو وحيٌ يُوحى!

خلفَ القضبانِ من الشبّاكِ يطلّ جبينْ

وأنا شعبٌ، في دهليزِ الإرهاقِ سجينْ

درعي صبري، وكفاحي الصامدُ، عشرَ سنينْ

وسلاحي العزمُ أصولُ به وحماي حصينْ

وجموعي تبني وحدتها في السجنِ عرينْ

وتصدٌّ بعزمٍ قهّارٍ كيْدَ العادينْ

وتطلُّ تشعشعُ في حَلَكِ الدهليزِ عيونْ

عينا فجرٍ في مقلتِهِ نفحُ النِّسرينْ

وشرارُ القيدِ تحطّمُه أيدٍ ما حنونْ

فجرُ الحريةِ يُشرقُ في سجني المأفونْ

يطأ العتماتِ، يبدِّدُها، ويدكُّ سجونْ

ويشعُّ على أفقي الساجي بأساً ويقينْ

وهتافاً يدفقُ في قلبي شلالَ رنين:

اصمدْ، لا تخشَهُمُ أبداً

Twitter: @ketab_n

وتشجَّعْ لا ترهبْ أحداً

اصمدْ، فالنصرُ لمن صَمَدا!

Twitter: @ketab_n

محمود درويش[69]

موال[70]

خسرتُ حلماً جميلا
خسرتُ لسعَ الزنابق
وكان ليلي طويلا
على سياجِ الحدائقْ
وما خسرتُ السبيلا

لقد تعوّدَ كفّي
على جراحِ الأماني
هُزّي يدَيَّ بعنفِ
ينسابُ نهرُ الأغاني

(٦٩) ولد محمود درويش في قرية «البروة» قرب عكا عام ١٩٤١. وهدم الإسرائيليون قريته عام ١٩٤٩. يساري وكان قد اشترك قبل ذلك في جماعة «الأرض»، سجن ثلاث مرات (عام ١٩٦١ وعام ١٩٦٧). يقيم حالياً في حيفا تحت الإقامة الجبرية. له الدواوين التالية: «عصافير بلا أجنحة» (١٩٦٠). «أوراق الزيتون» (١٩٦٤)، «عاشق من فلسطين» (١٩٦٦)، «آخر الليل» (١٩٦٧)، ويعتزم إصدار ديوان خامس اسمه: «يوميات جرح فلسطيني».
(٧٠) ١٩٦٤.

Twitter: @ketab_n

يا أمَّ مُهري وسيفي:

«يمّا.. مويلَ الهوى

يمّا.. مويليّا

ضربِ الخناجرْ ولا

حكمِ النذلْ فيّا»

يداكِ فوق جبيني

تاجانَ من كبرياءْ

إذا انحنيتُ انحنى

تلٌّ وضاعتْ سماءْ

ولا أعودُ جديرا

بقبلةٍ .. أو دُعاءْ

والبابُ يوصَدُ دوني

قالوا: تحبُّ الجميلةْ

فقلتُ: حبّي عبادةْ

الشعرُ أحلى خميلة

والصدرُ أغلى وسادةْ

Twitter: @ketab_n

والعرسُ دربُ بطولةْ.

«يمّا.. مويل الهوى

يمّا.. مويليّا

ضربِ الخناجرْ ولا

حكمِ النذلْ فيّا»

خسرتُ نخبَ الأضاحي

وما أضعتُ الليالي

لا بأس، إنّ جراحي

وردُ الرجالِ الرجالِ

ومهرجانُ الصباح.

الريحُ تنعسُ عنديَ

على جبين ابتسامةْ

والقيدُ خاتمُ مجدِ

وشامةٌ للكرامةْ

وساعدي للتحدّي..

«يمّا.. مويل الهوى

Twitter: @ketab_n

يمّا.. مويليّا
ضربِ الخناجرْ ولا
حكمِ النذلْ فيّا»

كوني على شفتيا
اسماً لكلِّ الفصولِ
لم يأخذوا من يديّا
إلا مناخَ الحقولِ
وأنتِ عندي دنيا

على يديكِ تصلي
طفولةُ المستقبلْ
وخلفَ جفنيك طفلي
يقولُ: يوميَ أجمل
وأنتِ شمسي وظلّي!

«يمّا.. مويل الهوى
يمّا.. مويليّا
ضربِ الخناجرْ ولا

Twitter: @ketab_n

حكمِ النذلْ فيّا»

الأرضُ أمْ أنتِ عندي
أم أنتما توأمان
من مدّ للشمس زندي
الأرضُ، أم مقلتان؟
سيّانِ، سيّانِ عندي!

إذا خسرتُ الصديقةْ
فقدتُ طعمَ السنابلْ
وإنْ خسرتُ الحديقةْ
ضيعتُ عطرَ الجداولْ
وضاعَ حلمُ الحقيقة!

عن الورودِ أدافعْ
شوقاً إلى شفتيكِ
وعن ترابِ الشوارعْ
خوفاً على قدميكِ

Twitter: @ketab_n

وعن دفاعي، أدافعْ

«يمّا.. مويل الهوى

يمّا.. مويليّا

ضربِ الخناجرْ ولا

حكمِ النذلْ فيّا»

Twitter: @ketab_n

قال المغني[٧١]

هكذا يكبرُ الشجرْ

ويذوبُ الحصى..

رويداً رويداً

من خريرِ النهرْ!

المغني على طريق المدينةْ

ساهرٌ للحقِّ.. كالسهَرْ

قال للريحِ في ضجرْ:

دمّريني ما دمتِ أنتِ حياتي

مثلما يدّعي القدَرْ

... واشربيني نخبَ انتصارِ الرفاتْ

هكذا ينزلُ المطرْ

يا شفاهَ المدينةِ الملعونةْ!

ابعدوا عنه سامعيهْ

والسكارى..

(٧١) ١٩٦٤.

Twitter: @ketab_n

وقيّدوه

ورموه في غرفةِ التوقيفِ

شتموا أمّه، وأمَّ أبيهْ

والمغنّي..

يتغنّى بشعرِ شمسِ الخريفِ

يضمدُ الجرحَ .. بالوترْ

المغني على صليبِ الألمْ

جرحُهُ ساطعٌ كنجمْ

قالَ للناسِ حولهُ

كلُّ شيءٍ.. سوى الندمْ:

هكذا متُّ واقفاً

واقفاً متُّ كالشجرْ

هكذا يصبحُ الصليبْ

منبراً.. أو عصا نغمْ

ومساميره.. وترْ!

هكذا ينزلُ المطرْ

هكذا يكبرُ الشجرْ..

Twitter: @ketab_n

شهيد الأغنية[72]

نصبوا الصليبَ على الجدارِ

فكّوا السلاسلَ عن يديّ

والسوطُ مروحةٌ، ودقّات النعالْ

لحنٌ يصفّرُ: سيّدي!

ويقولُ للموتى: حذارِ!

يا أنتَ!

قالَ نباح وحش:

أعطيكَ دربَك لو سجدتَ

أمامَ عرشيَ سجدتينْ!

ولثمتَ كفّيَ، في حياءٍ، مرتين

أو..

تعتلي خشبَ الصليبِ

شهيدَ أغنيةٍ.. وشمسٍ!

ما كنتُ أولَ حامل إكليلَ شوكٍ!

لأقولُ للسمراءِ: ابكي!

---

(72) ١٩٦٤.

Twitter: @ketab_n

يا مَن أحبُّك، مثلَ إيماني،
ولاسمكِ في فمي المغموسِ
بالعطشِ المعفّر بالغبارِ
طعمُ النبيذِ إذا تعتّقَ في الجرارِ!
ما كنتُ أولً حامل إكليلَ شوكِ
لأقولَ: ابكي!
فعسى صليبي صهوةً،
والشوكُ فوق جبيني المنقوشِ
بالدمِ والندى
إكليلُ غارِ!
وعساي آخرَ من يقولُ:
أنا تشهّيتُ الردى!

Twitter: @ketab_n

أبي[٧٣]

غضَّ طرفاً عن القمرْ
وانحنى يحضنُ الترابَ
وصلّى..
لسماءٍ بلا مطرْ،
ونهاني عن السفرْ!
أشعلَ البرقُ أوديةْ
كان فيها أبي
يربّي الحجارا
من قديمٍ.. ويخلقُ الأشجارا
جلده يندفُ الندى
يدهُ تورِقُ الحجرْ
.. فبكى في الأفق أغنيةْ:
كان أوديسُ فارساً..
كان في البيتِ أرغفةْ
ونبيذٌ، وأغطيةْ

(٧٣) ١٩٦٤.

Twitter: @ketab_n

وخيولٌ، وأحذيةْ

وأبي، قال مرةً

حين صلّى على حجرْ:

غضَّ طرفاً عن القمرْ

واحذرِ البحرَ.. والسفرْ!

يوم كان الإلهُ يجلِدُ عبدَهْ

قلتُ: يا ناسُ: نكفرُ

فروى لي أبي.. وطأطأ زندهْ:

في حوارٍ مع العذابْ

كان أيوبُ يشكرُ

خالق الدودِ.. والسحابْ

خلَقَ الجرحَ لي أنا

لا لميّتٍ.. ولا صَنَمْ

فَدَعِ الجرحَ والألمْ

وأعِنّي على الندمْ!

مرَّ في الأفقِ كوكبُ

نازلاً.. نازلاً

وكان قميصي

Twitter: @ketab_n

بين نارٍ، وبين ريحْ

وعيوني تفكرُ

برسومٍ على الترابْ

وأبي قال مرّةً:

الذي ما لَهُ وطنْ

ما لَه في الثّرى ضريحْ

... ونهاني عن السفرْ!

Twitter: @ketab_n

الحزن والغضب(٧٤)

الصوتُ في شفتيكِ لا يُطربُ
والنارُ في رئيتكِ لا تغلبُ
وأبو أبيك على حذاءِ مهاجرٍ يُصلبُ
وشفاهُها تعطي سواك، ونهدُها يحلبُ!
فعلامَ لا تغضبُ؟

أمسِ التقينا في طريقِ الليلِ
من حانٍ لحانِ
شفتاكِ حاملتانِ
كلَّ أنينِ غابِ السنديانِ
ورويتِ لي للمرّةِ الخمسينَ
حبَّ فلانةٍ وهوى فلانِ
وزجاجةُ الكونياكْ
والخيام والسيفُ اليماني..
عبثاً تخدرُ جرحَك العربيَّ

(٧٤) من «أوراق الزيتون» (١٩٦٤).

Twitter: @ketab_n

عربدةُ القناني!

عبثاً تطوعُ يا كنارَ الليلِ

جامحةَ الأماني!

الريحُ في شفتيك

تهدمُ ما بنيتَ من الأغاني!

فعلامَ لا تغضبُ؟

ما دامَ صوتُك يا كنارَ الليلِ لا يطربُ!

قالوا: ابتسمْ لتعيشَ

فابتسمتْ عيونُك للطريقْ

وتبرّأتْ عيناك من قلبٍ يرمده الحريقْ

وحلفت لي: إني سعيدٌ يا رفيقْ

وقرأت فلسفةَ ابتساماتِ الرقيقْ:

الخمرُ والخضراءُ والجسدُ الرشيقْ!

فإذا رأيت دمي بخمرِك

كيف تشربُ يا رفيقْ؟

الجمرُ في رئيتك،

من تحتِ الرّمادِ، غَداً يفيقْ

فعلامَ لا تغضبُ؟

Twitter: @ketab_n

ما دامَ طبعُ النارِ في جنبيك لا يغلبُ؟

القريةُ الأطلالُ

والناطورُ، والأرضُ اليبابْ

وجذوعُ زيتوناتِكُمْ

أعشاشُ بومٍ أو غرابْ!

مَن هيَّأ المحراثَ هذا العامَ؟

مَن رَبَى الترابْ؟

يا أنتَ!

أينَ أخوك؟

أين أبوك؟

إنهما سرابْ!

من أين جئتَ؟

أمِنْ جِدارٍ؟

أم هبطْتَ من السحابْ؟

أتُرى تصونُ كرامةَ الموتى

وتطرقُ في ختامِ الليلِ بابْ؟

وعلامَ لا تغضبُ؟

Twitter: @ketab_n

ما دامَ لحمُ أبي أبيكْ

على حذاءِ الليلِ يصلبُ؟

إنّا حملنا الحزنَ أعواماً

وما طلَعَ الصباحْ

والحزنُ نارٌ تخمدُ الأيامُ شهوتَها

وتوقظُها الرياحْ

والريحُ عندَك.. كيف تلجمُها

وما لكَ من سلاحْ

إلا لقاءُ الريحِ والنيران

في وطنٍ مُباحْ؟

Twitter: @ketab_n

رباعيات(٧٥)

وطني! لم يعطِني حبّيَ لكْ
غيرَ أخشابِ صليبي!
وطني، يا وطني، ما أجملكْ..
خذْ عيوني، خذْ فؤادي، خذْ حبيبي!

في توابيتِ أحبّائي أغنّي
لأراجيحِ أحبّائي الصّغارْ!
دمُ جدّي عائدٌ لي، فانتظرْني:
آخرُ اللّيلِ... نهارْ!

ها هنا، يا منجلاً كان أبي
يحصدُ القمحَ به في كلّ صيفْ
أنا أسقيكَ ضياءَ الكوكبِ
يا رفيقَ العمرِ، فاحصدْ كلَّ حيفْ!
ربما أذكرُ فرساناً، وليلى بدويةْ

---

(٧٥) ١٩٦٤.

Twitter: @ketab_n

ورعاةً يحلبون النُّوْقَ في مغربِ شمسِ
يا بلادي! ما تمنّيتُ العصورَ الجاهليةْ
فَغَدي أجملُ من يومي وأمسي!

شقَّ بالمحراثِ ثلماً بعدَ ثلمْ
زرَعَ القمحَ برفقٍ ثم صلّى للغمامْ
هطَلَتْ زخَّةُ دمْ!
أطلقوا النارَ عليه.. هل سمعتم يا نيامْ؟

آخرُ الأخبارِ من مدريدَ، إنَّ الجرحَ قال:
شبعَ الصابرُ صبرا!
أعدموا «غوليان» في الليل، وزهر البرتقالْ
لم يزَلْ ينشرُ عِطرا!

Twitter: @ketab_n

نشيد للرجال[٧٦]

لأجملِ ضفةٍ أمشي

فلا تحزَنْ على قَدَمي

من الأشواكِ..

إن خُطايَ مثلُ الشمسِ

لا تقْوى بدونِ دمي..

لأجملِ ضفةٍ أمشي

فلا تحزنْ على قلبي

من القرصانِ

إن فؤاديَ المعجونَ كالأرض

نسيمٌ في يدِ الحبِّ

وبارودٌ على البغضِ

لأجملَ ضفةٍ أمشي

فلا تُشفقْ على عيني

من الصحراءِ..

إن مرارةَ الحزنِ

---

(٧٦) ١٩٦٦.

Twitter: @ketab_n

أحلّيها بسكّرِ غايتي الخضراءْ
فتصبحُ مثل ذوبِ الخمرِ في الدنِّ!
لأجملِ ضفةٍ أمشي
فإمّا يهترىءُ نعْلي
أضعْ رِمشي
نعمْ .. رِمشي!
ولا أهفو إلى نومٍ وأرتجفُ
لأنّ سريرَ مَن ناموا
بمنتصفِ الطريقِ
كخشبةِ النّعشِ!
تعالوا يا رفاقَ القيدِ والأحزانِ
كي نمشي
لأجملِ ضفةٍ نمشي
فلن نُقهَرْ
ولن نخسَرْ
سوى النّعشِ!

إلى الأعلى حناجرُنا

Twitter: @ketab_n

إلى الأعلى محاجرُنا

إلى الأعلى أمانينا

إلى الأعلى أغانينا

سنصنعُ من مشانِقِنا

ومن صلبانِ حاضرِنا وماضينا

سلالمَ للغدِ الموعودْ

ثم نصيحُ: يا رضوان!

افتحْ بابَك الموصودْ!

سنطلقُ من حناجرِنا

ومن شكوى مراثينا

قصائدَ.. كالنّبيذِ الحلوِ

تكرعُ في ملاهينا

وتنشدُ في الشوارعِ

في المصانعِ

في المحاجِرِ

في المَزارِعِ

في نوادينا

سننصبُ من محاجرِنا

Twitter: @ketab_n

مراصدَ تكشفُ الأبعدَ والأعمقَ والأروعْ

فلا نقشعْ

سوى الفَجرِ

ولا نسمعْ

سوى النَّصرِ

فكلُّ تمرُّدٍ في الأرض

يزلزلُنا

وكلُّ جميلةٍ في الأرض

تُقبِّلُنا

وكلُّ حديقةٍ في الأرض

نأكلُ حَبَّةً منها

وكلُّ قصيدةٍ في الأرض

إذا رقصت نخاصرُها

وكلُّ يتيمةٍ في الأرض

إذا نادت نناصرُها..

سنخرجُ من معسكرِنا

ومنفانا

سنخرجُ من مخابينا

Twitter: @ketab_n

ويشتمُنا أعادينا :

هلا، همج هُمُ، عربُ!

نعمْ! عرَبُ

ولا نخجلْ

ونعرفُ كيف نمسِكُ قبضةَ المنجلْ

وكيف يقاوِمُ الأعزلْ

ونعرفُ كيف نبني المصنعَ العصريَّ

والمنزلْ

ومستشفى، ومدرسةً، وقنبلةً، وصاروخاً..

وموسيقى

ونكتبُ أجملَ الأشعارِ

عاطفةً، وأفكاراً، وتنميقاً!

Twitter: @ketab_n

سميح القاسم[٧٧]

بطاقات إلى ميادين المعركة

١- إلى الأسطى سيّد

يا أسطى سيّدْ

ابنِ، وشيِّدْ

شيِّدْ لي السَدَّ العالي

شيِّدْ لكْ

أطفئْ ظمأَ الغَيْظِ الغالي

وامنحْنا، وامنحْ أهلَك

(٧٧) ولد عام ١٩٣٩ في مدينة الزرقاء في الضفة الشرقية من الأردن، حيث كان والده يعمل ضابطاً في الجيش هناك، وعادت عائلته إلى الرامةِ (الجليل) وهو طفل، وتلقى هناك دراسة الابتدائية، وأكمل دراسته الثانوية بعد النكبة في الناصرة. عمل في التعليم، ثم فصل بعد صدور ديوانه الثاني «أغاني الدروب» الذي حذفت الرقابة قصائد عديدة منه. سجن مرتين (١٩٦٧،١٩٦١) وفُرضت عليه الإقامة الجبرية في حيفا بعد خروجه من السجن، بالإضافة إلى أوامر إضافية تقضي بعدم مغادرته المنزل بعد الساعة السادسة مساء، كما يتحتم عليه أن يثبت وجوده مرتين عند البوليس أثناء النهار. مسلم درزي، ذو اتجاه يساري، وكثير الإنتاج. آخر دواوينه، بالإضافة إلى «مواكب الشمس» (١٩٥٨) و«أغاني الدروب» (١٩٦٤) و«إرم» (١٩٦٥) و«دمي على كفي» (١٩٦٧)، اسمه «دخان البراكين» وقد صدر في أول سنة ١٩٦٨.

Twitter: @ketab_n

كوباً من ماءْ

وخضاراً وزهوراً وضياءْ

يا أسطى سيِّدْ

أزُفَ الموعدْ

والقريةُ في الصحراءِ العطشى

تحلمْ

والبِذرةُ في الثلمِ الصّابرِ تحلمْ

فادفنْ أشلاءَ القُمْقُمْ

في أشلاءِ الصَّخرِ المتحطِّمْ

وابْنِ وشيِّدْ

يا أسطى سيِّدْ

باسمِ ضحايا الأهرامِ وباسمِ

الأطفالِ

ابنِ السدَّ العالي

يا صانعَ حلمِ الأجيالِ!

٢- إلى ثوار الفيتكونغ

أسمعُها تهدرُ ملءَ دمي

Twitter: @ketab_n

أسمعُها في الوديانِ على الغاباتِ
على القِمَمِ
أسمعُ صرخاتِ الأحرارِ وقَهْقَهَةَ
الرشَّاشْ
أسمعُ غاراتِ الفاشستِ
الأوْباشْ
وأصيحُ أصيحُ بلا صوتِ :
الموتُ لآلهةِ الموتِ!
وأحسُّ بكفّي تتقلّصْ
وأغيبُ لبرهةْ
وأحسُّ كأنّي أتربَّصْ
بذئابِ الغزْوِ على أرضِ الجبهةْ
وأصب على الأشباحِ النارَ..
وأبكي:
من يجرعُ في باراتِ نيويوركْ
الويسكي؟
من يَلقى في المقهى حلوةْ؟
من ينشدُ في الشارعِ غنوةْ؟

Twitter: @ketab_n

من يحرثُ في أمريكا؟ من يزرعْ
من يحرثُ في فيتنام ويزرعْ؟
من يبقى في المصنعْ
من يبقى؟
يا آلهةَ الموتِ الحمقى في أمريكا
يا آلهةَ الموتِ الحمقى!
تجَلْجلُ ملءَ دمي
في الوديانِ على الغاباتِ على القِمَمِ
غاراتُ الفاشستِ الأشرارْ
وأصيحُ أصيحُ بملءِ فمي:
الموتُ لآلهةِ الموت!
وصباحُ النّصرِ مُشعٌّ في أعينكُمْ
يا ثوّار فيتكونغ الأحرارْ!

٣- إلى نجيب محفوظ

عاشوا، لم تصحبْهُم كلمةْ
ماتوا، لم تصحبْهُم كلمةْ
فالفصحى والأوراقُ المصقولةُ

Twitter: @ketab_n

والإنشاءْ

والحبرُ الغالي والأقلامُ الفضّيةْ

كانتْ مسبيّةْ

يلهو بمفاتنِها النّبلاءْ

والناسُ البسطاءْ

عاشوا، لم تصحبُهُم كلمةْ

ماتوا، لم تصحبهم كلمةْ

فاغرِفْ من أعماقِ البئرِ

العذراءْ

واسْقِ العاملَ والفرّانَ وأطفالَ

الحارةْ

فالناسُ ظِماءْ

اكتبْ عن شَحْذِ الهمّةْ

واكتبْ عن أحلامِ الأمّةْ

منارةْ

طوبى للحرفِ الشامخِ في الليلِ

والعارُ لأبراجِ العاجِ المنهارةْ

وسبايا النّبلاءْ!

Twitter: @ketab_n

٤- إلى كاسترو

قَدَماً قَدَماً في هذا الدربْ

يا حاطمَ أغلالَ الشعبْ

قَدَماً يا أولَّ شعلةْ

في عتمةِ أمريكا المحتلةْ

قَدَماً، ما دامتْ في البيتْ

أشتاتُ الأوباشِ الفاشستْ

قَدَماً: الفجرُ وقضبانُ السكّرْ

أسلحةٌ ليست تُقهرْ

يا غَوْثَ الجُزُرِ المنهوبةْ

وعزاءَ الأممِ المنكوبةْ

راياتُ القرصانْ

ستغوصُ إلى القيعان إلى القيعان

شوهاءَ مخضّبةً مغلوبةْ

باسمِ الحريّةِ والإنسانْ

قَدَماً قَدَماً يا شعباً في كوبا

ما عاد مسيحاً مصلوباً!

Twitter: @ketab_n

٥- إلى بول روبنسون

من أقصى أطرافِ الدنيا

ينهلُّ غناؤك في بيتي

ويرفرفُ في قلبي

عصفوراً أسمرَ منفيا

من أقصى أطرافِ الدنيا

ينهلُّ غناؤك في بيتي

يا أعمقَ صوتِ

ينهلُّ غناؤك في بيتي

يا أقصى لافتةٍ في الدربْ

يا فاضحَ جُورِ الإنسان على الإنسانْ

من أقصى أطرافِ الدنيا:

بالله، خذوا أمّي للبيتْ

كي لا تشهدَ موتي

وتهوّمُ في عينيّا

أشباحُ الكوكلوكس كلانْ

يلهونَ بصلبِكَ في الميدانْ

يلهونَ بصلبي في الميدانْ

Twitter: @ketab_n

وأفيقُ على ضربةِ طبلْ

ويعودُ إلى قلبي الايمانْ!

٦- إلى كريستوف غبانيا

ما زالَ طويلَ الأظفارِ

ما زالتْ تقذفُ عيناه حِمَمَ النّارِ

ما زالتْ تحميهِ دجيةْ

في قلبِ الأدغالِ الإفريقيةْ

ما زالَ يزلزلُنا حقداً لا رعباً

الوحشُ القاتلُ لومومبا

ودماءُ الكونغو ما زالت، في كلِّ طريقْ

وصلاةُ الكونغو ما زالتْ،

والليلُ عميقْ

فارفَعْ شعلتَكَ المشبوبةْ

وأضِىء للأمّ المحبوبةْ

فالدربُ طويلٌ دون ضياءْ

والدربُ قصيرٌ ما دامتْ

في الموكبِ رايتُكَ الحمراءْ

Twitter: @ketab_n

فارفعْها، ولتُخفقْ أبداً

في الدربِ على جُثثِ الشّهداءْ

الدربُ قصيرْ

الدربُ قصيرْ!

Twitter: @ketab_n

هكذا!

مثلما تغرسُ في الصحراءِ نخلةْ

مثلما تطبعُ أمي في جبيني الجهمِ قبلة

مثلما يُلقي أبي عنه العباءةْ

ويهجّي لأخي درسَ القراءةْ

مثلما تطرحُ عنها خوذَ الحربِ كتيبة

مثلما تنهضُ ساقُ القمحِ في الأرضِ الجديبةْ

مثلما تبسمُ للعاشقِ نجمةْ

مثلما تمسحُ وجهَ العاملِ المُجهِدِ نسمةْ

مثلما يشمخُ بين الغَيْمِ مصنعْ

مثلما ينشدُ بعضُ الصَحبِ مطلعْ

مثلما يبسمُ في ودٍّ غريبٌ لغريبْ

مثلما يرجعُ عصفورٌ إلى العشِّ الحبيبْ

مثلما يحملُ تلميذٌ حقيبةْ

مثلما تعرفُ صحراءٌ خصوبةْ

هكذا تنبضُ في قلبي العروبةْ

Twitter: @ketab_n

لن

واحداً تلوَ واحدِ
يسقطُ الميتونَ تباعاً
فاحرسي يا بلادي الشراعا
عائدٌ فارسُ الريحِ عائدْ

قطرةً تلوَ قطرةٍ
يُمطرُ الدمعُ فوق الصحاري
فابْشري باخضرارِ
يا سُهوبَ الرّؤى المكفهرّةْ

كان أمساً مقيتاً
داسَنا باحتقارٍ ووَلّى
وغداً لن نبيتا
مزقاً تذرعُ الأرضَ وَهْناً وذُلاّ
قَسماً جذرُنا لن يموتا
قَسماً دمنا لن يطلاّ

Twitter: @ketab_n

إلى جميعِ الرّجالِ الأنيقين في الأمم المتحدة!

أيّها السادةُ من كلِّ مكانْ
ربطاتُ العنقِ في عزِّ الظهيرةْ
والنقاشاتُ المثيرةْ
ما الذي تجديه في هذا الزمان؟
أيّها السادةُ من كلِّ مكانْ
نبتُ الطحلبُ في قلبي
وغطّى كلَّ جدرانِ الزجاجْ
واللقاءاتُ الكثيرةْ
والخطاباتُ الغزيرةْ
والجواسيسُ، وأقوالُ البغايا، واللُّجاجْ
ما الذي تجديه في هذا الزمان؟

أيّها السادةُ
خلّوا قمرَ القردِ كما شاءَ يدورْ
وتعالوا!!
إنني أفقدُ للدنيا الجسورْ

Twitter: @ketab_n

ودمي أصفرْ

وقلبي انهارَ في وحلِ النذورْ

أيّها السادةُ من كلِّ مكانْ!

لِيكُنْ عاريَ طاعوناً، وحزني أفعوانْ

أيها الأحذيةُ اللامعةُ السوداءُ من كلِّ مكانْ

نقمتي أكبرُ من صوتيَ، والعصرُ جبانْ

وأنا... ما لي يَدان!

عن روما

روما احترقَتْ قبلَ قرونْ

لكنّ الجذْرَ الضّاربَ في أرضِهْ

لم يفقدْ في النّكبةِ معنى نبضِهْ

روما عادتْ... يا نيرون!

Twitter: @ketab_n

عن كرمئيل[٧٨]

مدينة الحقد والجوع والجماجم

صباحَ مساءْ

يطالعُنا وجهُها والسماءْ

ونبسمُ، لا بسمةَ الأغبياءْ

ولكنّها بسمةُ الأنبياءْ

تحدّاهُم صالبٌ تافهٌ

يغطّي الشموسَ ببعضِ رداءْ!

غداً، يا قصوراً رسَتْ في القبورْ

غداً، يا ملاهي

غداً يا شقاءْ

سيذكرُ هذا الترابُ سيذكرُ

إنّا منحْناهُ لونَ الدماءْ

وتذكرُ هذي الصخورُ رعاةٍ

---

(٧٨) سلب العدو في مطالع الستينات أراضي قرى البعنة ونحف ودير الأسد العربية ليبني عليها مدينة كرمئيل اليهودية في محاولاته لتهويد الجليل.

Twitter: @ketab_n

بنوها بأدعيةٍ من حِداءْ
ونذكرُ أنّا...

هنا سِفرُ تكوينُهم ينتهي
هنا سِفرُ تكويننا في ابتداءْ!

التعاويذُ المضادّةِ للطائراتْ

نحن في عِزِّ الظهيرةْ
نصفُ قرصِ الشمسِ يبكي في الزقاقْ
والدجاجاتُ يولولنَ على وقعِ البساطيرِ الكبيرةْ
وأبي يحشو رصاصاتٍ غبيّةْ
بين إلحاحِ نداءاتِ الرّفاقْ:
راحتْ البروة[79] يا ويلي على تلك الشقيّةْ
وعلى اللياتْ[80] يشتدُّ الخناقْ!

(٧٩) «البروة»: قرية عربية هدمها الإسرائيليون عام ١٩٤٩ وحرثوا أنقاضها، تبعد عن عكا ١٥ كيلومتراً.
(٨٠) «الليات»: طريق بعد البروة بـ٣ كيلومترات في اتجاه صفد، تمركز فيها جيش الإنقاذ

Twitter: @ketab_n

كنتُ طفلاً آنذاكْ

كنتُ أمتصُّ حليبَ التاسعةْ

وحليبَ الفاجعةْ

كنتُ جدياً حالمَ العينيْن

من حوليَ الآفُ الشباكْ

يومَ قالتْ ليَ أمي بارتباكْ:

هذه الليلة لا تخلعْ ثيابكْ

ساعةَ النومِ

ولا تخلعْ حذاءكْ!

لم أكنْ أفهمُ ما تعنيهِ بالضّبطِ

وإنّي بكيتْ!

نحن في ساعاتِ تهويمِ المساءْ

نصفُ قرصَ القمرِ المغدورِ يبكي في الزقاقْ

لم يعدْ بعدُ أبي

والشائعاتْ

عن خياناتِ القيادةْ

قرب قرية مجد الكروم عام ١٩٤٨.

Twitter: @ketab_n

واندفاعُ الجيشِ، لكن للوراءْ

دفعتنا للبكاءْ!

عسكرُ «الإنقاذ» خرفان تولّي للشمالْ

عسكرُ «الإنقاذ» يُلقون البنادقْ

في الخنادقْ

وعلى الوحْلِ..

... يزتّون النياشينَ وشاراتِ القتالْ..

عسكرُ «الإنقاذ»، يا عارَ الرجالْ

أقبل الفاتحُ يا أبناء «رامه»[٨١]

أقبلَ الفاتحُ يا ناسْ

فلوذوا بالسّلامةْ

ما الذي تجديكُمُ الآن أناشيدُ الكرامةْ؟

صوبوا كلَّ التعاويذِ بوجهِ الطائراتْ

ألّبوا الله عليها

واقذفوها بالوصايا العشرِ

---

(٨١) «الرامة»: قرية على طريق صفد تشتهر بالزيتون، و هي مسقط رأس الشاعر.

Twitter: @ketab_n

والجفرِ

وآيات السماءِ البيّناتْ!

كنتُ طفلاً آنذاكْ

علّموني أن مجرى الأرضِ في كفِّ السماءْ

علّموني أنه، سبحانه، يُحيي ويُفْني ما يشاءْ

علّموني أن أطيعَ الأولياءْ

علّموني الدَجلَ والرّقصَ على الحبلِ

وإذلالَ النساءْ

علّموني السحرَ والإيمانَ بالأشباحِ

والرقية والتعزيمْ

والخوفَ إذا جاءَ المساءْ

علّموني ما يشاؤون ولم يستنْبِئوني ما أشاءْ

فرسُ الخضْرِ كفيلٌ بي

وحسبيَ الأولياءْ!

يا أبي المهزومَ، يا أمي الذليلةْ!

إنني أقذفُ للشيطانِ ما أورثتُماني

Twitter: @ketab_n

من تعاليمِ القبيلةْ!
إنني أرفضُها تلك الطقوسُ الهمجيّةْ
إنني أجتثُّها من جذْرِها
تلك المراسيمِ الغبيّةْ
إنّني أبصقُ أحقادي وعاري
في وجوهِ الأولياءِ الصّالحينْ
إنني أركلُ قاذوراتِ ذُلّي وانكساري
للتكايا والدراويشِ
وأقزامِ الكراسي النابحينْ!

إنني أصرخُ من قَعْرِ جحيمي:
يا وحولاً لصقتْ في نعلِ تاريخي العظيمْ
إنني أحكمُ بالموتِ عليكِ!
فأعدّي كفناً من جلدِ أنصافِ الرجاَلْ
واذا شئتِ، نقوشاً وصليباً ونجوماً وهلالْ
ووصايا وابتهالْ
طرِّزيها بيديْك!

Twitter: @ketab_n

الرعب والبيت الأخير في القصيدة، والخفافيش

١- الرعب

حين تغيبُ الشمس، قالوا، أغيبْ

في حجرةٍ من وطنْ!

أحرمْ، قالوا، من عناقِ الهمومْ

بيني وبين القمرْ

يرعبُهُم، أعلم، بثُّ الضجرْ

بيني وبين النجومْ

يرعبهُم لمسي جذوعَ الشّجرْ!

وفي مغيبِ الشّمسِ، قالوا، أغيبْ

في حجرتي يا وطنْ،

قالوا، أكونُ الغريبْ

وأنت ملءَ البدَنْ

فمَنْ تُرى يحملُ عبرَ الزمنْ،

في قلبهِ، وجهك هذا الحبيبْ

ومن مغنّيك.. من؟

Twitter: @ketab_n

غيري أنا.. يا وطن؟

٢- البيت الأخير في القصيدة

صعدوا السلّمْ..

أسمعُ وقعَ الخطواتِ المشبوهةْ

أبصرُ تحت معاطفهُمْ

عنوانَ المنزلِ والفوْهةْ

صعدوا السلّمْ..

هَمَسوا،

ثانيهم يتقدّمْ

يعقفُ سبّابتَهُ.. ينقرُ بابي!

ويلك يا هذا.. عكرتَ الصّمتْ

ويلك نفّرتَ الصورةْ

عن آخرِ بيتْ.

٣- الخفافيش

الخفافيشُ على نافذتي،

تمتصُّ صوتي

Twitter: @ketab_n

الخفافيشُ على مدخلِ بيتي

والخفافيشُ وراءَ الصحْفِ..

... في بعضِ الزوايا

تتقصّى خطواتي

والتفاتاتي

والخفافيشُ على المقعدِ،

....

... في الشارعِ خلفي

وعلى واجهةِ الكُتُبِ وسيقانُ الصّبايا

كيف دارَتْ نظراتى

الخفافيشُ على شرفةِ جاري

والخفافيشُ جهازٌ ما .. وخُبءٌ في جِدارِ

والخفافيشُ على وشَكِ انتحارِ

إنني أحفرُ درباً للنهارِ!

Twitter: @ketab_n

توفيق زياد

كلمات عن العدوان

يا بلادي! أمسِ لم نطْفُ على حفنةِ ماءْ
ولذا لن نغرقَ السّاعة في حفنةِ ماءْ

من هنا مرّوا إلى الشرقِ غماماً أسودْ
يطأون الزّهرَ والأطفالَ والقمحَ وحَبّاتِ النّدى
ويبيضونَ عداواتٍ وحقداً وقبوراً ومِدى
من هنا، سوف يعودون، وإن طالَ المَدى

هكذا ماتَ، بلا نَعْيٍ على الرّملِ شهيدْ
طلقةٌ في رأسِه، صيحةُ قهرٍ ووعيدْ
حفرَ القاتلُ في مدفعِهِ رقماً جديدا
ومضى يبحثُ، مثل الذئبِ، عن رقمٍ جديدْ
وعلى بضعةِ أمتارٍ بكى طفلٌ وليدْ
عندما مرَّ على جبهتِهِ السّمراءِ جنزيرُ حديدْ

Twitter: @ketab_n

لا تقولوا لي: انتصرنا

إن هذا النّصرَ شرٌّ من هزيمةْ

نحن لا ننظرُ للسّطحِ ولكنّا

نرى عمقَ الجريمةْ،

لا تقولوا لي: انتصرنا

إننا نعرفُها هذي الشّطارةْ

إننا نعرفُه الحاوي الذي

يُعطي الإشارةْ!

إنه سيّدُكُم يلهثْ

في النّزعِ الأخيرْ

إننا نسحبُهُ، من أنفِه، سحبا

إلى القبرِ الحقيرْ

ما الذي خبّأتُموه لغَدٍ؟

يا من سفكتُمُ ليَ دمي

وأخذتُمُ ضوءَ عينيّ

وصلبتُم قلمي

واغتصبتُم حقَّ شعبٍ آمن

لم يجرِمِ...

Twitter: @ketab_n

ما الذي خبّأتموه لغَدٍ

يا من أهنتُم عَلَمي

وفتحتُم في جراحاتي جراحا

وطعنتُم حُلمي

ما الذي خبّأتموه لِغَدْ

إن غداً لم يُهزَمِ!

إنّكم تحيون من عشرين عاماً

حُلمَ صيفٍ ذا رواءْ

وتصيدون لأمرِ الغيرِ

في بحرِ دموعٍ ودماءْ.

إنكم تبنون لليومِ وإنّا

لِغَدٍ نُعَلّي البناءْ

إننا أعمقُ من بحرٍ، وأعلى

من مصابيحِ السماءْ

إن فينا نَفَساً

أطول من هذا المدى الممتدّ

في قلبِ الفضاءْ

Twitter: @ketab_n

أيُّ أمٍّ أورثتكُم، يا تُرى

نصفَ القنال؟

أيُّ أمٍّ أورثتْكم ضفّةَ الأردنِّ،

سيناءَ، وهاتيك الجبالْ؟

إن من يسلبُ حقاً بالقتالْ

كيف يحمي حقَّه يوماً

إذا الميزانُ مالْ؟

ثم.. ماذا بعدُ؟ لا أدري، ولكنْ

كلُّ ما أدريه أن الأرضَ حبلى والسنين

كلُّ ما أدريه أن الحقَّ لا يفنى

ولا يقوى عليه غاصبونْ

وعلى أرضيَ هذي

لم يعمِّرْ فاتحون

فارفعوا أيديكُم عن شعبنا

لا تطعموا النّار حطبْ

كيف تحيّون على ظهرِ سفينةْ

وتُعادون محيطاً من لَهَبْ؟

Twitter: @ketab_n

فارفعوا أيديكُم عن شعبنا

يا أيها الصمٌّ الذين

ملأوا آذانَهم قطناً وطينْ

إننا للمرّة الألف نقولْ:

نحن لا نأكلُ لحمَ الآخرين

نحن لا نذبحُ أطفالاً ولا

نصرعُ ناساً آمنين

نحن لا ننهبُ بيتاً

أو جنى حقلٍ

ولا نطفئ عيونْ

نحن لا نسرقُ آثاراً قديمةْ

نحن لا نعرفُ ما طعمُ الجريمةْ

نحن لا نحرقُ أسفاراً

ولا نكسرُ أقلاماً

ولا نبتزُّ ضعفَ الآخرين،

فارفعوا أيديكُم عن شعبنا

يا أيّها الصمٌّ الذين

ملأوا آذانهم قطناً وطينْ

Twitter: @ketab_n

إننا للمرّة الألف نقول:

لا! وحقّ الضوءْ

من هذا الترابِ الحرِّ

لن نفقدَ ذرّة!

إنّنا لن ننحني

للنارِ والفولاذِ يوماً

قيدَ شعرةْ!

كَبْوةٌ هذي وكم

يحدثُ أن يكبو الهمامْ

إنها للخلفِ كانتْ

خطوةٌ

من أجلِ عشرٍ للأمام!

Twitter: @ketab_n

قصائد قصيرة

ثلج على المناطق المحتلة

أيُّ شيءٍ يقتلُ الإصرارَ

في شعبٍ مكافحْ؟

وطني – مهما نسوا –

مرَّ عليه ألفُ فاتحْ

ثم ذابوا

مثلما

الثلجُ

يذوبْ!

أمثال

عن جدِّنا الأول

قد جاءَ في الأمثالْ:

واوي بلعَ منجلْ!

كلُّ ما تجلبُه الرّيحُ

Twitter: @ketab_n

ستذروه العواصفْ

والذي يغتصبُ الغيرَ

يعيشُ العمرَ

خائف!

شيء عابر

لستُ عرّافاً،

ولا أفتحُ في الرملِ

و لا أقرأُ النجومْ

إنما أعرفُ أن الظلمَ

شيءٌ عابرٌ

ليسَ يدومْ!

شجرة التوت

عندما مرّوا صباحاً فوقها

همسَتْ شجرةُ توتْ:

إلعبوا بالنّارِ ما شئتمْ

فلا

Twitter: @ketab_n

حقّ

يموتْ!

آخر مرة

عندما داسوا عليها هتفَتْ

جنبَ نبعِ الماءِ، زهرةْ:

أيها المحتلُّ حذّكْ

هذه آخرُ مرّةْ

هذه

آخرُ مرّة!

سراب

طَوّقْ طَوّقْ، وانسِفْ، واقتلْ كلَّ الأحبابْ

واحرقْ بيتي، أحرقْ زرْعي، واحرِقْ كلَّ كتابْ

فمُحالٌ أن يُرْوي ظمأَ العطشانِ غديرُ سرابْ

صبراً لن ينتصرَ النّابُ على بسمةِ طفلي

صبراً يا أمي، صبراً أختي، صبراً واحتملي

Twitter: @ketab_n

سنسمِّرُ تلك الأيدي فوقَ الأبوابْ،

وسنذبحُ ذاك الوحشَ بتلك الأنيابْ

سيغنّي البلبلُ، سيعَشِّشُ فوق الأعتابْ

وسيطلعُ فجرَ الشعبِ، ولن يطلعَهُ غيرُ الأحبابْ

حادث ليلي

فتحَ البابَ علينا .. فجأة .

وانهارَ أرضاً كالجدارْ

كان في عينيْهِ رعبٌ،

... وعلى الجبهةِ فرخا جُلَّنارْ

وعلى الكتفِ اليسارْ

ثوبُهُ القطني معجونٌ مع الكتفِ اليسارْ.

لم يقلْ شيئاً ..

... قفزنا نحوه..

... مزقتْ الصمتَ امرأة:

"أينه.. ؟ صاحتْ: أبُ أولادي الصّغار!"

لم يقلْ شيئاً .. ولكنْ

Twitter: @ketab_n

طالَ من جيبِه منديلاً معرّقْ

كان منديلاً عرفناهُ جميعاً

كان مخضوباً مخرّقْ

صاحتْ المرأة: "أوّاهُ.." وراحَتْ

... تتمزّق..

آهِ كم موتٌ علينا هذه الأيام أن نهربَ منه

زفَر المنهار أرضاً كالجدارْ

وعلى أسنانِه شدَّ كمن يبلعُ سكينةَ نارْ:

"كنتُ أمشي خلفَهُ لمّا سمعتُ المدفعْ

الرشّاشَ.. أمشي كنتُ خلــ.. كانتْ

الليلةُ قمراءَ، وكان النهرُ مرآةً، وكنا

نقطعُ الجسرَ حُفاةً صامتين

مثلَ رَتلٍ من لصوصٍ حذرين

كانت الليلةُ قمراءَ وكنا عشرةً.. عشرينَ.. خمسينْ

أنا لا أذكرُ كَمْ..

... لكِ يا أرضَ العذابْ

يا بيوتُ الطينِ.. يا رائحةَ الأهلِ..

Twitter: @ketab_n

ويا حفنةَ عشبٍ وترابْ

مثلَ رَتلٍ من لصوصٍ لكِ كنا عائدين

نقطعُ الجسرَ حفاةً حذرين

عندما انقضّوا علينا فجأةً مثلَ الذئابْ

فتحوا أفواهَ رشّاشاتِهم .. مترانِ كانا بيننا

آهٍ كمْ موتٌ علينا،

هذه الأيام أن نهربَ منه!!

لم نكن نحملُ حتى خنجرا

وتساقطنا على بعضٍ تساقطنا

كرفٍّ من ذبابْ

وهو..؟؟ صحنا كلّنا صيحةَ شكٍّ وارتيابْ

وهو..؟؟

صمتٌ،

ونشيجٌ،

وسكاكينُ عذابْ

....

جمعونا كلّنا في حفرتين

ورمَوا بعضَ الترابْ

Twitter: @ketab_n

لم أكنْ ميتاً ولمّا تركونا

قمتُ.. كان النهرُ مرآةً وكانتْ

ليلةٌ حمراء غرقى في الضبابْ

وأنا أزحفُ في صمتٍ وذعرٍ وعذابْ

وعلى الأرضِ أمامي

كان منديلُه ملقًى، فعرفتُهْ،

وحملته..."

.....

جلستْ في قرنةِ الغرفةِ تبكي امرأةٌ حبلى

وبِنْتٌ وصبيّ

أنتِ يا محمّرةَ العينيْن.. ما نفعُ البكاءْ

عندما نفسُ الدماءْ

لا تساوي اليومَ شيء!!

آه يا رائحةَ الأهلِ..

ويا بيتاً من الطينِ..

ويا حفنةَ عشبٍ وترابْ

كم علينا اليومَ..

Twitter: @ketab_n

من أجلِكُم..

... أن نجرعَ الموتَ..

وألوانَ العذابْ!!

ادفنوا أمواتُكُم وانهضوا

....

وعلينا كان أن نشربَهُ..

حتى الزّجاجْ

كأسنا المُرَّ المُحنىّ

وعلينا كان أن نُذبحَ

... ذبحاً كالنّعاجْ

ساعةَ التاريخِ جُنّا

وعلينا كان أن نهربَ

... سرباً من دجاجْ

ونحسَّ العارَ حتى العظم منا

Twitter: @ketab_n

إنما لا بأسَ! هذا لحمُنا جسدٌ..

... على البحرِ الأجاجْ

لضفافٍ لم نخنها أو تخنّا

يا تراباً كلُّه تبرٌ

وياقوتٌ وعاجْ

حبُّنا أقوى من الحبِّ وأغنى

فادفنوا أمواتَكُم وانتصبوا

فغدٌ – لو طارَ – لن يفلتَ منّا

نحنُ ما ضعنا .. ولكن

مِنْ..

جديدٍ..

قدْ..

سُبِكْنا.

Twitter: @ketab_n

فوزي الأسمر(٨٢)

شيء جديد

لا بُدَّ من يومٍ جديدْ

يومٍ،

تخافُ الشمسُ فيه من العبيدْ

والفجرُ يهزأُ بالقيودْ

وبالحديدْ،

والطفلُ يحتضنُ النشيدْ

ويدوسُ بالقدميْن ثعباناً حسودْ

ويدقُّ صدرَ الأرضِ، يقتحمُ السّدودْ

والطفلُ في أرواحنا شيءٌ جديدْ.

في كلِّ فجرٍ عندنا... يومٌ جديدْ

وعلى كواهلنا حديدْ

---

(٨٢) شاعر شاب وناقد وصحفي، أصل عائلته يرتد إلى يافا، ويعمل حالياً في صحيفة «هذا العالم». طرد من عمله عدة مرات ولوحق، ويكاد يكون أغزر كاتب في الأرض المحتلة والملاحق الدؤوب لتطور الحركة الأدبية والثقافية فيها. نشر عدة كتب أدبية وقومية، واعتقل في أواخر سنة ١٩٦٣ بعد أن صودر كتابان نشرهما آنذاك وهما «محمد والمسيح» لخالد محمد خالد، و«دمعة وابتسامة» لجبران خليل جبران.

Twitter: @ketab_n

سنزيلُ ذاك الصلبَ والحملَ العتيدْ
سنزيلُهُ
حتى نعانقَ فجرَ أمّتنا الجديدْ .

ما قيمةُ الإنسانِ ... في الديجورِ
في اللّحنِ العتيقْ؟
في عقرِ قبرٍ نورهُ ليلٌ .. سحيقْ
في وجهِ بومٍ،
لحنُها صوتُ النعيقْ
ما قيمةُ الإنسانِ إن هجرَ الحريقْ؟
لا شيءَ بعد الهجرِ يُكنّى بالجديدْ.

ما قيمةُ الحبِّ الملفعِ بالنّعيمْ؟
في فجرِ يومٍ.. غائمٍ
سئمٍ... عقيمْ
الحبُّ قد مجَّ الغيومَ
وعانقَ الفجرَ الجديدْ
الحبُّ في أرواحنا شيءٌ جديدْ.

Twitter: @ketab_n

المعبد القديم

في معبدي القديمِ، لم أزلْ
أُلمِمُ الحروفْ
أُذيبُها في موقدِ اللهبْ
أصوغُها نغمْ،
أنشودةٌ من العزاءِ... والأملْ
ولحنُها،
من لحنِ نارِنا، وحبِّنا الكبيرْ
من نورِ قلبِنا المنيرْ
من جرحِنا،
من جرحِنا الذي يلوّنُ العبيرْ
من زندِ ذاك الأسمرِ الصلبِ الذي يفجِّرُ الصخورْ
من أرضِنا الثكلى ومن دمعِ الربيعِ على الزهورْ!

في المعبدِ القديمْ
عيونُ شمعِنا تذوبُ في ضَجَرْ
دخَّانُها يفيضُ.. في غضبْ
ليلثمَ الجدارْ!

Twitter: @ketab_n

ويترك الظلامُ بقعةً من عارِنا على جبينِ
سقفهِ القديمْ

ما زالَ ذاك المعبدُ القديمْ
يغوصُ في بخورِنا،
في كلِّ يومٍ نحرقُ البخورْ
هديةً لله
لنفسِ ربنا القديم!
وننحرُ الخرافْ
مع كُلِّ فجرٍ ننحرُ الخرافْ
نذيبُها في المذبحِ القديمْ
هديةً لله
لنفسِ ربنا القديم!
ويخرجُ الدخانْ
مجمعاً في حلقةِ الضبابْ
من غيرِ لون
من دونِ رائحةْ
كأن نارَنا رمادْ

Twitter: @ketab_n

وكبشَنا هباءْ!

في المعبدِ القديمْ
ما زال صوتُنا يردّدُ النشيدْ
مع ألفِ ألفِ تائهٍ شريدْ
لربِنا القديمْ
لنفسِ ربّنا القديمْ
كي يقبلَ النشيدْ
ونارَنا... وكبشَنا السّمينْ
ويقبلَ البخورْ
هديةً من معبدٍ قديمْ!

هذي الطريق

«قال عقبة بن نافع وهو ينظر إلى المحيطِ بعد أن تمّ فتحُ المغرب:
والله لو أمرني الجهاد بخوْضِ هذا المحيط بحصاني هذا لفعلت..»

عزّتْ معاقلُنا
مشحونةٌ بالحقدِ يغلي في مراجلِنا

Twitter: @ketab_n

وبطولةٌ كالوردِ

تعبقُ في خمائلِنا

ومَضَتْ قوافلُنا

للمجدِ رواها فَخارٌ من مناهلِنا

تروي عن الأرضِ الخصيبةِ

بالدماءْ

وعن الكرامةِ والإباءْ

قصصاً تضوعُ على منازلِنا

نصراً بلادَ المجدِ

قلبُ المجدِ تؤويه منازلُنا

نصراً بلادَ الله

روحُ الله في دمِنا

اللهُ في دمِنا

الحقدُ،

حتى تنجلي الآفاقُ عن شمسٍ

تعانقُها مشاعلُنا

إنّا سليلو طارقٍ

أو من مَضوا مع طارقٍ

Twitter: @ketab_n

للفتحِ عبرَ المغربِ

كلٌّ يقولُ أنا الفتى العربي

في الدمِ ثورتي وتوثُّبي

حملوا للذريق الزّؤامَ من السماءِ

من المضاءِ اليُعربي

حرقتْ سفائنهم سواحلنا

إنّا ورثنا الحربَ

لا كان التخاذلُ في شمائِلنا

إنّا ورثنا صيحةً لله

ما زالتْ تدوي في سواحِلنا

– والله لو أَمَرَ الجهادُ

بخوضِ هذا البحرْ

لاندفعَتْ قنابلُنا[٨٣]

بالحقدِ

حتى تنجلي الآفاقُ عن شمسٍ

تعانقُها مشاعلُنا

---

(٨٣) قنابل: جمع قنبلة وهي مجموعة من الخيل (٥٠ رأساً).

Twitter: @ketab_n

نزيه خير[٨٤]

وهْم

مزارعُ الضبابِ في قلوبِهمْ
وفي عيونِهم ضراوةُ الحريقْ
مدّوا يدَ المصيرْ
لعالَمٍ بلا مصيرْ
ورحلةُ التيّارِ قصّةٌ
تمرُّ في نفوسِهم
تعودُ في مدارجِ الشقاءْ
منزوعةً..
من كلِّ ما في الصبحِ من رجاءْ
منزوعةً من فجرِها الأصيلْ
– والوهمُ – لم يزلْ خلودَهم.. ولم تزلْ
مزارعُ الضبابِ في قلوبهمْ
وفي عيونهم ضراوةُ الحريقْ!...

---

(٨٤) نزيه خير شاعر شاب، أسلوبه الشعري قوي، ولكنه ينظم قصائد قصيرة، اتجاهها الواضح غير مبلور بعد، من الشعراء الواعدين في الأرض المحتلة.

Twitter: @ketab_n

منسيّة الميلاد

ميلادُها.. ومضى بغيرِ حكايةٍ

تروي لقاءَ الناسِ بالأعيادِ

لا ضمة.. لا همسة عطرية

رضيتْ تراقصْ شمعةَ الميلادِ

ربيت للميلادِ حزمةُ نرجسٍ

فمضى ونرجسيَ الحزينُ يهادى

لا تحزني.. فغداةَ يصحبُك الندى

في نجوةٍ تهفو إلى ميعادِ

وغداة آهٍ من غداة إذا هوى

فعلى طلال وثوبِه إنشادي

وعلى مشارف صبحه قمرية

نجلاء كحّلها النسيمُ النادي

لا تحزني.. ما كان يضني قولهم:

مسكينة ..منسيةُ الميلاد.. !

Twitter: @ketab_n

راشد حسين[85]

الجياد

فيِ بلادِ الآخرينْ
يولدُ الطفلُ صغيرا
فيصبون على أيامِهِ دفئاً ونورا
ثم يروون له من قصةِ الشمسِ
سطورا
وإذا الطفلُ الذي كان صغيرا
رجلاً يصبحُ.. إنساناً كبيرا!

في قرانا يولَدُ الطفلُ أميرا
فيصبون على عينيْهِ ليلاً ونذورا
وعلى جلدَتِهِ الرخوةِ يبنون قصورا
وإذا الطفلُ الذي كان أميرا
قزماً يصبحُ.. إنساناً صغيرا
يشربُ الوحلَ ويجترُّ القشورا

---

(85) ولد راشد حسين محمود في قرية مصمص من قرى المثلث الشمالي عام ١٩٣٦، وتلقى دراسته الابتدائية في أم الفحم. يعمل الآن في الصحافة.

Twitter: @ketab_n

في بلادِ الآخرينْ
يكبرُ الطفلُ وتنمو معه كلُّ المعاني
وعلى جبهتِهِ تنمو نجومٌ وأماني
في قرانا.. بين طياتِ الدخانِ..
يكبرُ الطفلُ لكي تكبرَ بالطفلِ التهاني
ليقولوا: أصبح المحروسُ حلماً
للحِسانِ...
أو عريساً صارَ .. في سنٍّ
الزواجِ ابن فلانِ

واذا جيلٌ من العرسانِ يجتاحُ
بلادي
جيلُ أطفالٍ كبارٍ .. كالجيادِ!
ملأتْ أذهانَهم أشباحُ تفكيرٍ رمادي
فالأماني تنتهي عند «سعاد»
عند أقدامِ «سعاد»
عند حِنّاء على كفٍّ «سعاد»!

Twitter: @ketab_n

ليتَ أهلي يلِدون الطفلَ طفلا

ثم لا يرْمونَ في عينيْه وَحْلا

علَّهُ يُزهرُ في أرضِ بلادي

جيلُ فرسانٍ جديدٌ.. في بلادي

يلدُ الأطفالُ أطفالاً صغارا

ثم يغدون رجالاً.. يملأون الليلَ نارا

علّني ألمحُ من حولي نسورا

لا عصافير يقلّدنَ النسورا!

في بلاد الآخرين تقلقُ الناسُ النهاية

في قُرانا تقلقُ الناس البداية

همَّهم أن تَلِدَ الزوجةُ مولوداً ذكرْ

ليقولوا «إنها بنتُ أصيلٍ مفتخَرْ...»

«وضعتْ طفلاً ذكرْ

وجهُهُ وجهُ القمرْ»

ليقولوا: «زوجُها فحلٌ عظيمْ..

رجل»

أو «جوادٌ عربيّ .. بطلٌ لا يُخذَلُ»

«ابنُهُ البِكْرُ ذكرْ

Twitter: @ketab_n

وجهُهُ وجهُ القمرْ!»

بعد هذا ليصر ابنُهم راعي ذبابْ

ولْيكُنْ دودةَ أرضٍ .. كلُّ ما فيها

ترابْ!

وليكُنْ أبْكَمَ.. أعمى .. وليكن بومَ

خرابْ

ولْيَمُتْ والده ولْتَمُتّ والدتهُ

ولْتَمُت من فرحٍ قابلتُه

فهو مولودٌ ذكَرْ

وجهُهُ وجهُ القمرْ

أمهُ بنتُ نبيلٍ .. فرسٌ لا تعثرُ

زوجُها فحلٌ أصيلٌ.. بطلٌ منتصرُ!

وطني.. قلْ لي متى يا وطني

مرّةً تُغرقنا بالضّوءِ لا بالوسَنِ

بعد أن أغرقتنا في عسلٍ، في لبنِ

علّ اسواقَ الجواري تتهدّم

والجيادَ السودَ للنّارِ تُقدّم

Twitter: @ketab_n

علّ أرتالَ العصافيرِ تدورْ
وإذا هّنَّ صقورٌ ونسورْ!

خواطر وأصداء

وبكتْ تعزّيه السّماءُ فزادتْ المنهوكَ وجدا
هل غارقٌ في اليَمِّ يطلبُ من سماءِ الكونِ مَدّا
ويريدُ أمطاراً تجمِّدُ جسمَهُ فيزيدُ جهدا؟
لا يا سماءُ، توقّفي! فالبائسُ المحزونُ هُدّا!

سِرْ يا أخي لا تأسَ، إن الهزْءَ بالأرزاءِ أجدى
في صفحةِ التاريخِ نحنُ نخطُّ فوق المجدِ مجدا
سِرّ جدِّد الأملَ الوئيدَ ولا تكنْ لليأسِ عبدا!

Twitter: @ketab_n

محمود دسوقي[٨٦]

السجن والكفاح

لن يُرهبَ، السجنُ أحراراً لنا سُجنوا
أو عُذّبوا بنواحي الأرضِ واعتُقلوا
لن يُرهبَ السجنُ آساداً مزمجرةً
لا ترهبُ النفيَ والتعذيبَ ما فعلوا
لن يُرهبَ السجنُ مَنْ أملاكُه سُلِبَتْ
وبيتُهُ درسَتْ آثاره «القللُ»
أضحى يهيمُ، فلا أرضٌ ولا بلدٌ
ولا بيوتٌ ولا مالٌ ولا عملُ
أين العدالةُ يا مَنْ تدّعون بها
أفي العدالة «تصريحٌ» و«معتقلُ»؟

---

(٨٦) محمود دسوقي من قرية الطيبة، رافق شعره الذي ينطبع بطابع كلاسيكي محض الأحداث العربية خطوة خطوة. نشر ديوان «مع الأحرار» عام ١٩٥٩. ثم عاد فنشر ديوان «موكب الأحرار» الذي صودر ومنع بيعه في الأسواق. يعتقد أنه نشر تمثيلية اسمها «محكمة المهداوي» وقصصاً بعنوان «المجزرة الرهبية».

Twitter: @ketab_n

أفي العدالةِ «تركيزٌ» «مصادرةٌ»

و«حاضرٌ غائبٌ» فيها كم الرجلُ

ثوروا على الظلمِ والطّغيانِ واتّحدوا

إلى متى شعبُنا للظلمِ يَحتملُ

سيروا نحطّمُ قيداً قد علاهُ صدا

ونهدمُ الظلمَ، لا خوفٌ ولا وَجَلُ

مرّتْ سنونٌ على الأوطانِ حالكةٌ

فما رأى ظلمنا آباؤنا الأول

«دافيدُ» فكّرتَ أن السجنَ يُرهبنا

لـن نـرهـبَ السجنَ والتعذيبَ..

فاعتقلوا

هنا نثورُ على ظلمٍ يُحيقُ بنا

وشعبُنا اليومَ كالبركانِ يشتعلُ..

شعب وخيام

بلادي أيكفينا لثمَ الترابْ

وهذي الحجارةُ بعدَ الغيابْ

Twitter: @ketab_n

بلادي أنبقى نزيلي الخيام

أنبقى نرافقُ مُرَّ العذابْ

أيبقى الشّقاءُ حليفاً لنا

أما كُنّا في المهدِ صرْنا شبابْ

أتبقى على البُعدِ آلامنا

وأحلامُنا في البُعدِ شِبهَ السرابْ

أنبقى نعيشُ بهذي الخيام

وجوفِ الكهوفِ وفوقَ الهضابْ

وأرضٌ ودارٌ وزيتونةٌ

تنادي وتندبُ فوق الصحابْ

تحنُّ إلى أهلِها النازحينَ

تبلِّلُ بالدمعِ وجْهَ الترابْ

بلادي اعلمي في دمي ثورةٌ

أنا عائدٌ رغمَ كلِّ الصّعابْ

أنا عائدٌ رغمَ هذي الحدود

إلى دارِنا بعد طولِ الغيابْ

أنا عائدٌ زَغْردي يا طيورُ

وزِفّي إلى الأهلِ بُشْرى الإيابْ

Twitter: @ketab_n

الأقصُوصة

أبو سلام

وأخيراً: نوّر اللوز[87]

«في السنوات الرومانسية من صباي قرأت رواية ديكنز، "قصة مدينتين"، واستبطلت سدني كارتن الذي ضحى بحياته لإنقاذ زوج المرأة التي أحبها، حين بادله اللباس والمكان في الباستيل، وتحت شفرة المقصلة.

ومثل غيري من الناس لم يصمد بطل من أبطالي للبلى. بل أقبلوا وأدبروا مع إقبال العمر ومع إدباره، حتى لم يبقَ لي بطل سوى فيلسوف هيجو، جرنجوار الآفـاق البائس، في "أحدب نوتردام"، الذي حين طلبوا منه المبادلة نفسها لإنقاذ إزمرالدة الغجرية الحسناء ورفض، فسئل عما يجعله شديد التعلق بالحياة، أجاب: سعادتي الكبرى في قضاء الأيام كلها، من الصباح إلى المساء،

---

(٨٧) الحلقة الثانية من قطعة ذات ستة فصول اسمها «سداسية الأيام الستة»، تعتبر وحدها قصة قصيرة – نشرت في «الجديد» – (أيار/مايو ١٩٦٨).

Twitter: @ketab_n

مع رجل عبقري هو أنا، وهذا شيء جميل جدا.»

- والعروبة؟

- هلا أقلعت عن العتاب والتهكم في مقابلتنا الأولى هذه، بعد انقطاعي عنك عشرين عاماً؟

وهذا ما أردته بالضبط حين ذكّرت الأستاذ «م» بالعروبة، وقد فاجأني بزيارة ليلية أثارت دهشتي، وأثارت شكوكي، ورجاني أن أستمع إليه ببال طويل.

لقد كنا صديقين حميمين في سنوات الابتدائية فالثانوية. وكنا، سوية، مؤسسّي الجمعية السرية الأولى في مدرستنا الابتدائية لمحاربة الإنجليز، التي لم يكن فيها سوى العضوين المؤسسين، ولم تترك أثـراً سوى عادة التدخين المزمنة والتي اعتبرناها من مقتضيات العمل السرّي. ولبسنا النظارات الشمسية السوداء، إخفاء لدموع الرجال، حين احتفلنا بإنهاء الدراسة الثانوية، وتوادعنا وتواعدنا.

إذ افترقت طرقنا فيما بعد. فسافر «م» إلى القدس لإنهاء دراسته في الكلية العربية، ثم رجع إلى بلدنا حيث عمل مدرّساً للإنجليزية في مدرستها الثانوية ولا يزال في هذه الوظيفة حتى الآن.

Twitter: @ketab_n

ومنذ أن قامت إسرائيل انقطعت صلتي به انقطاعاً تاماً. وحتى المرحبا أخذ يتحاشاها حين نلتقي عرضاً في الطريق. وكانت آلمتني هذه القطيعة في بدايتها، حتى تعودت عليها، وأسقطته من حياتي مدركاً أنه من ذلك النوع من الناس، أشبه ما يكون بامرأة كانت في عزوبيتها لا تقوم عن قراءة قصة حتى تقع على غيرها، فلما وجدت الزوج، لم تعد تقرأ شيئاً، ولا قصاصات الجرائد في دورة المياه.

وصاحبنا، الذي كنت وإيّاه نتنغم سوية بفتوحات خالد بن الوليد، وبمراثي المتنبي، وبكفرانيات ابي العلاء - العروبة، قد تزوج الوظيفة. فكيف وشأنه أن يحافظ عليها في إسرائيل حيث من مستلزمات ذلك أن تنكر كل صلة بصديقك وبقريبك إذا كان من المشاغبين على السلطة، ولو كان أخاك ابن أمك وأبيك؟

ثم طرق بابي فجأةً، في ذات ليلة من الليالي التي أطبقت بعد حرب الأيام الستة. وقعد قبالي بعد قطيعة عشرين عاماً. وقال:

- استمع حتى النهاية.

فما الذي حطّ في قلبه أسداً، فتجرّأ على زيارتي؟

ووصل الأستاذ «م» ما انقطع من حديثه:

- سقط سدني كارتن من ألبوم أبطالي مع شعرات شفرتي

Twitter: @ketab_n

الأولى. ولكن عنوان رواية ديكنز - «قصة مدينتين» - ظلّ يلاحقني ويسحرني ويؤثر على ذوقي طول هذه السنين الطويلة. وكان هذا التأثير يظهر بأشكال حيّرتني في بادىء الأمر. ثم استسلمت له. بل أصبحت أحمله معي عاطفاً عليه، معزّاً له كما يحمل إنسان تعويذة كانت والدته علقتها بعنقه منذ الطفولة.

وفي بداية عهدي بهذا التأثر الغريب شرعت في كتابة «قصة مدينتين» من تأليفي، مدينتين من بلادنا، حيفا والناصرة. وكتبت فصلها الأول، فإذا القصة تنتهي به، فطرحتها. ثم قرّرت أن أتخصّص في موضوعين، الإنجليزية والمحاماة. ولكنني لم أفعل. وعالجت قرض الشعر بالإنجليزية وبالعربية، فقرضت الهواء، باللغتين معاً. ويؤلمني أنني لم أنجب سوى ولد واحد، فإنني راغب في ولدين اثنين رغبة شديدة. وعليك أن تسأل ابنك الذي أعلمه في المدرسة الثانوية فيخبرك أنني لا أعطيهم للقراءة سوى كتابين معاً، وشاعرين للحفظ، وأديبين للمقارنة، وساعتين للامتحان. وأشياء أخرى في حياتي، لا ضرورة إلى ذكرها، تؤكد سيطرة هذه الازدواجية، في ذلك العنوان السحري - «قصة مدينتين» - على ذوقي وعلى عقلي. ولكنك، ولا شك، لاحظت هذا الأمر حين كنّا صديقين في شبابنا. هل نسيت أنكم كنتم تلقّبونني بأبي الذقنين؟

Twitter: @ketab_n

- كنت ضخماً ومنتفخ الوجنتين.

- لا. بل كنت مثلكم بذقن واحدة. وأما هذا اللقب فعلق بي لأنني كنت أحب ترديد القول: لا تهمّني ذقن ممشطة أو ذقن مخططة. ذقنان، ذقن رجل وذقن امرأة، اثنان، «قصة مدينتين»، هذه هي الازدواجية، تعويذتي التي حملتها حول عنقي منذ الصبا.

(إن صاحبي القديم هذا إنسان مرتّب، في هندامه وفي كلامه، وهو مسرف في حديثه دون تكلّف. فتركته على هواه كما عودته فيما مضى، خصوصاً وأنني دهشت من زيارته المفاجئة، وأردت أن أستشفّ غرضه من هذه الزيارة. ولقد اعتقدتُ أنني بدأت أفهم غرضه. قلت في نفسي أحد أمرين: إما أن وازعاً من ضميره أيقظته الحرب فدفعه الآن، بعد عشرين عاماً، إلى تبرير انقطاعه عني بهذه الازداوجية، وإما أن واحداً ما قد أرسله إلي لأمر ما، وهو يريد أن يستردّ صداقتي بالحديث عن هذه الازدواجية السحرية. فاحترست منه وتشوّقت إلى نهاية حديثه.) فقال:

- لذلك لم تطل دهشتي حين ارتقت بنا السيارة، لأول مرة بعد حرب حزيران، في منعطفات طلعة اللبن اللولبية، في الطريق من نابلس إلى رام الله.

فلتت مني شهقة حين عبرنا المنعطف الأول، وارتج لساني

Twitter: @ketab_n

ومقود السيارة في يدي وهتفت بزملائي الذين كانوا معي في السيارة: عشرين عاماً وأنا أحلم بهذه المنعطفات اللولبية. هذه الطلعة لم تغب عن ذاكرتي يوماً واحداً. إني أتذكر كل منعطف فيها. هي أربعة فعدوها. وهذه الجبال المشرئبة تحرس السهل الأخضر. هي عشرة فعدوها. وهذا الهواء النقي، هذا الأريج أعرفه. إني استنشق رائحة رافقتني طول العمر. هذا المكان مكاني.!

(فهمت! الآن فهمت لماذا جاء هذا المسكين إلي بعد انقطاع عشرين عاماً. يا لصديق الصبا، كم قسا الدهر علينا! عذراً على شكوكي. وكدت أقوم كي أعانقه. ولكنه لم يمهلني.)

فلم ينقطع الأستاذ «م» عن حديثه:

- بعد إلحاحي رضي زملائي بأن أوقف السيارة عند المنعطف الأخير، الرابع. ونزلوا معي لنستنشق ذلك الهواء ولنملأ عيوننا بمشهد الجبال والسهل المحروس، وأشجار اللوز تملأ السهل والجبل، أما كان أجدر بهم أن يسموها منعطفات اللوز؟ وكان شيء في داخلي يدعوني إلى السجود. وكان شيء في عيني يذوب دمعاً.. وشعرت شعور المُشاهِد عجيبة تقع أمام ناظريه. وكأني أحيا مرة ثانية سني شبابي الماضية، في مراتع صباي، لا أراها فقط بل أحياها، وأستنشق هواءها وأحسّ بدماء الصبا، مع رائحة الطابون

Twitter: @ketab_n

والقطين، تجري مشبوبة في عروقي.

ولكن زملائي لم يمهلوني. وسرعان ما أسقطوني من شواهق منعطفاتي إلى واقعي في الحضيض. هذا يريد متابعة السفر حالاً لأن تصاريحنا لا تنص على أنه يسمح لنا بالنزول في طلعة اللبن. وهذا يتهكم على ذكرياتي عن هذه الطلعة بأنني في يوم من الأيام، قبل عشرين عاماً، قد بوّلت في أحد منعطفاتها، وغير ذلك من الكلام الذي ألفناه نحن الأساتذة حين نبتعد عن طلابنا وعن زوجاتنا.

وظللت طول الطريق إلى رام الله فالقدس فبيت لحم، وفي العودة، أهجس بهذا الأمر المدهش، وأسترحم ذاكرتي أن تستعيد ما وقع لي من أمر، في شبابي، في هذه الطلعة، جعلني أقف مأخوذاً أمامها، لا أريد مفارقتها أبداً.

ولكن دون جدوى، حتى وصلنا إليها في العودة فهبطناها دون توقف. فرآني أحد زملائي مهموماً. فوضع يده على كتفي مواسياً، وقال: هي شبيهة بطلعة العبهرية، في الطريق من الناصرة إلى حيفا، فلعلّ الأمر اختلط عليك.

فرفع حجراً ثقيلاً عن صدري.

منذ حوالي عشرين عاماً وأنا أسافر إلى حيفا مرتين في الأسبوع،

Twitter: @ketab_n

حيث أقدم دروساً إضافية في إحدى مدارسها الثانوية، فأمرّ بطلعة العبهرية ذهاباً وإياباً. أقنعني زميلي بهذا التفسير البسيط، مع علمي بانعدام الشبه بين الطلعتين، لأنني أعرف سر نفسي وضعفي بقصة المدينتين. لا شك في أن طلعة العبهرية ارتبطت دائماً في مخيلتي بطلعة اللبن. قبلت هذا التفسير، وأزحت عبئاً ثقيلاً عن صدري.

(يا للإنسان! أيذبح في ذاكرته ذكريات لا يقوى على احتمالها؟ كنت أحسب أن فاقدي الضمير تتحجر قلوبهم، فلا يشعرون بتأنيبه. فإذا الأمر مختلف، وإذا الإنسان أعجز من أن يقتل ضميره، فيقتل الذاكرة! إذن، لماذا جاء يحدثني بهذه الحكاية؟)

وقال صاحبي القديم:

- تذكر أن لي معارف وأصدقاء عديدين في الضفة الغربية، من أيام الدراسة وفيما بعد. أستاذة ومحامون وأطباء ورجال أعمال وسياسون ووزير ومستوزرون. ولقد زرتهم جميعاً. ووصلنا ما انقطع من ذكريات ومن صداقة. وعادوا كما كانوا قبل عشرين عاماً جزءاً عزيزاً من حياتي. ولا يمضي أسبوع إلا وأزور أحدهم أو يزورني. كنت في الماضي توهمت أنهم نسوني، واستحوا بي، وأنهم قطعونا من شجرة حياتهم، كما يقلم الفرع الجاف لتنمو الشجرة ولتورق.

Twitter: @ketab_n

- ولكننا فرع أورقته الحياة.

- صدقت. جئتهم في بادىء الأمر متعثراً، غير متأكد من استقبالهم. فوجدت ما لم أكن أتوقعه من حنين إلى صداقة قديمة، ومن اعتزاز بها. ووجدت أنهم كانوا يتتبعون أخبارنا. وكانوا يلتقطونها من فم الطير. ووجدت أنهم يضعوننا أعلى من الموضع الذي وضعنا أنفسنا فيه. وكنت رغبت في أن أخفي عنهم انطوائي في الصدفة عشرين عاماً. فإذا بهم يعرفون ذلك ويبررونه بالشدة، ويرونني على غير ما أرى نفسي. لقد رفعوا من قدري فارتفعت. وشالوني فطالت قامتي، فأصبح رأسي فوق الضربات.

ولذلك قلت لك أنهم عادوا جزءاً عزيزاً من حياتي، تلك التي عرفتها أنت قبل عشرين عاماً.

- فهل زرتني الليلة بقامتك الطويلة، علناً؟

- وهل أستطيع أن أزورك إلا علناً!

- وهل، لهذا، زرتني؟

- لا. بل لأمر يقلقني ويؤرقني. قلت لك أن دهشتي لم تطل حين أهاجتني طلعة اللبن ومنعطفاتها. فقد أعدت شعوري هذا إلى تعويذتي التي لازمتني طول حياتي، إلى ازدواجية تفكيري ومنطقي، وإلى اتصالي المستمر بطلعة أخرى، هي طلعة العبهرية.

Twitter: @ketab_n

وصعدت منعطفات اللبن وهبطتها عشرات المرات منذ ذلك الوقت. وحين كان الحنين الآسي الغريب إليها يدهمني كنت أعلله حالاً وأريح ضميري.

حتى جاء ذلك اليوم من أيام شباط الماضي، حين عدت مع زوجتي وولدي من زيارة أصدقاء لنا في القدس القديمة. وكان الوقت ظهراً حين بدأنا نهبط منعطفات اللبن. وكانت براعم اللوز تتفتح، وألوانها البيضاء والحمراء تتعانق في نشوة ربيعية رقصت الجبال العشرة كلها.

– بأية لغة نظمت هذه القصيدة؟

- بلغة عيني وبلغة قلبي. وستسمعني حتى النهاية:

وظلت زوجتي تلح عليّ بأن أوقف السيارة، حتى نلتقط أغصان لوز منورة تزين بها البيت. ولم أرضخ لطلبها إلا في المنعطف الأخير، الأدنى، حيث تقوم شجرة لوز عتيقة أعتقد أنها كانت موجودة أيضاً في أيامي السابقة.

فنزلنا وقطعنا أربعة أغصان ابتسمت لنا وابتسمنا لها.

وحين سألتني زوجتي: هل إذا زُرع غصن اللوز في التراب ينمو شجرة، انقبض صدري وبدأت أتذكر.

هل تذكر أنه في مطلع شبابنا كان لنا صديق، أحب فتاة من

Twitter: @ketab_n

القدس أو من بيت لحم، من هناك، وكنا نحب حبه؟

- كلنا أحب، وكنا نحب حبه.

- بل هذا الصديق كان حبه أجمل من حبنا. وكانت له قصة. وكنا في رحلة. ونزلنا أمام تلك الشجرة في باب طلعة اللبن. وكان هناك بيت. وكان فيه دجاج وأبقار. والبيت لا يزال قائماً، ولكنني لا أرى الدجاج ولا أرى الأبقار. واستسقينا سكانه ماء. وإذا بفتيات، في رحلة من القدس، وهن يقطعن أغصان اللوز المنور. وكانت بينهن صاحبة صاحبنا. والتقيا، وناولته غصن لوز منور. وفررن. هل كنت معنا؟

– وماذا بعد؟

- إني أذكر عنه قصة جميلة. لا أدري الآن كيف وصلت إلي. فصاحبته قطعت فرعاً من الغصن وقدمته إليه واستبقت الفرع الآخر. وتعاهدا على أن يحتفظا كل بفرعه، وأن يلتقيا في الربيع القادم، حين ينور اللوز، فيأتي بأهله ويخطبها من أهلها. فكيف كانت نهاية قصتهما الجميلة ؟

- وما اهتمامك كل هذا الاهتمام بأمرهما؟

- لست أدري. ولكنني أحسب أن دافعاً قوياً يدفعني إلى أن أفتح صفحات صداقاتي القديمة، كلها. كأنما أريد أن أشد حاضري

Twitter: @ketab_n

إلى روابط ماضي، كلها، حتى لا تنفصم أبداً مرة ثانية. كان ذلك الماضي فياضاً بالأمل. وكان يحتضن الدنيا وما فيها. وكان نقياً مفتوحا كعيني طفل. وكأنني اليوم أريد أن أتعلق بخيوطه حتى أنتشل نفسي من هذا الحاضر. فهل تراني غريقاً أتعلق بحبال الهواء؟

- ثم ماذا؟

- منذ حرب حزيران وأنا أتجول كالملهوف بحثا عن الأصدقاء القدامى. وكلما التقيت أحدهم تأججت لهفتي إلى لقيا الآخرين. ومنذ أن تذكرت قصة صاحبنا هذا وأنا أفتش عليه، وأبحث عنه، فلا يذكر أحد من أصدقائي قصته. وقد أوقعتني هذه اللهفة في مأزق. وكدت أن لا ألقى صديقاً من أصدقائي القدامى إلا وألح عليه بأن يخبرني كيف تعرف على زوجته!

ولم يبق من أصدقاء الصبا من لم أسأله عن صاحبنا هذا سواك. لذلك جئت إليك. فهل تذكره وتريحني؟

- كنت دائماً غريب الأطوار يا صاحبي. ولكنك الليلة أغرب ما كنت. فما هذه اللهفة على معرفة أمر جانبي؟

- تقول: جانبي! إنني أدرك الآن أنني ما انطويت في صدفتي، واحدودب ظهري، إلا حين قطعت الصلة بماضي. وما هو هذا الماضي؟ إن الماضي ليس زمناً. إن الماضي هو أنت وفلان وفلان

Twitter: @ketab_n

وجميع الأصدقاء. سوية رسمنا لوحة هذا الماضي. وكل منا لونها بلونه الخاص حتى جاءت على صورتها الشابة المشتعلة التي عانقت الدنيا وما فيها. ولن أعيد الصلة بهذا الماضي إلا إذا تكاملت أجزاء اللوحة بجميع ألوانها. وصاحبنا هذا، بحبه الجميل، أراه الابتسامة في ثغر هذه اللوحة. أي ماض يبقى بدونه. وماذا يبقى من لوحة الجيوكنده إذا مُسحت ابتسامتها؟ إن قصته، التي ستكون اللقاء، عودة الحبيب إلى حبيبته، خاتمتها المفرحة، والتي سيكون الفراق المزمن خاتمتها المحزنة، أراها أصدق تعبير عن ربيعية ماضينا، الذي أريده أن يعود كما يعود الربيع بعد كل شتاء.

– أراك تعود إلى قصة المدينتين، الفرعين، المحب وحبيبته، النهاية المفرحة والنهاية المحزنة. أما الحياة فهي ليست خطوطا متمايزة، بل هي خطوط متشابكة. فلماذا لا يكون خيالك، الذي أيقظه حنين ربيعي إلى جبال شامخة، قد توهم هذه الحكاية؟

– لقد استيقظ خيالي حقاً، ولا أريده أن ينام مرة أخرى. لذلك أبحث عن صاحبي هذا. فهل أفهم أنك لا تتذكره؟

– دعني أحاول. فإذا تذكرته أبلغتك الأمر.

وتركني الاستاذ «م» وهو مهموم كما لم أره مهموماً في حياتي. وبقيت مكاني مهموماً كما لم أكن مهموماً في حياتي.

Twitter: @ketab_n

ولعدة دقائق بعد خروجه أمسكت نفسي قسراً عن اللحاق به حتى أهز ذاكرته من موتها.

ولكن، هل أستطيع إحياء الأموات؟

كيف لا أتذكر قصة الحب الجميلة التي يتلهف الأستاذ «م» على تذكر صاحبها. وكم مرة سألت نفسي: كيف يستطيع إنسان أن يقتل في قلبه مثل هذا الحب؟

وبعد حرب حزيران، حين زرت السيدة الكريمة، الوفية، في القدس أو في بيت لحم، هناك، على حد تعبير الأستاذ «م»، وأرتني غصن اللوز الجاف، الذي لا تزال تحتفظ به، ويكاد يشتعل بالأحمر وبالأبيض حين تستعيد قصته، وأخبرتني أنه زارها مع عدد من زملائه المعلمين، وكان طول الوقت كثير الكلام وشديد الحبور، وأنها أدخلتهم إلى مكتبتها ليروا مجموعة الكتب والتحف التي جمعتها، وأنه لحظ غصن اللوز الجاف، فسألها ما هو، فأخبرته أن اللوز ينور في شباط، فانتقل يحدثها عن المشمش وعن الجمعة المشمشية، دهشت لهذا الأمر أشد دهشة.

ولكنني الآن، وبعد أن زارني الأستاذ «م»، وحدثني بكل ما حدثني به، فهمت كل شيء.

فإني واثق بأن الأستاذ «م» صادق في نسيانه وصادق في

Twitter: @ketab_n

لهفته على أن يتذكر. فبإرادة باطنية غريبة نسي حقاً أنه هو نفسه صاحب قصة الحب الجميلة، والابتسامة التي نورت صبانا.

فهل من واجبي أنا أن أذكره وأريحه كما طلب مني؟ ولماذا يجب أن أريحه؟ وهل سأريحه حقاً؟

إذا كانت قامته قد طالت، كما قال لي، فستطول يده هذه القصة، فيقرأ. فهل حينئذ سيتذكر، فيعيد الروابط بماضيه، فينتشل نفسه من حاضرها؟

وأخيرا نور اللوز، فالتقيا. وكان الربيع يضحك. وكان القدر يقهقه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المسرحيّة

توفيق فياض

بيت الجنون

(مسرحية في فصلين)

توضيح :

ستبدو المسرحية، التي يشغلها من أولها إلى آخرها بطل واحد هو سامي، أستاذ التاريخ والأدب السابق، ستبدو لأول وهلة وكأن لا علاقة لها بتيار المقاومة العربي في فلسطين المحتلة، إلا إأن ذلك سيبدو خطأً عند التمعن بحقيقة الرموز التي صار من المعروف أنها أفضل شيء يتجه له العمل الفني حين يمارس تحت ظل القمع والاحتلال.

ومع ذلك فهناك ضرورة لتسجيل بعض الملاحظات التي يمكن لها أن تساعد في فهم المسرحية على صورة أفضل:

أولاً: هنالك الكثير من المدرسين العرب في الأرض المحتلة قد تعرضوا للسجن والنفي والإبعاد والتسريح بسبب طبيعة

Twitter: @ketab_n

الـدروس التي كانوا يلقونها على تلامذتهم، وقد يكون مؤلف المسرحية نفسه واحداً من هؤلاء المدرسين، وهذه الحقيقة ستوضح بعض المواقف التي يقفها البطل.

ثانياً: تعرض المثقفون العرب في الأرض المحتلة إلى محاولات إغراء قام بها المثقفون الإسرائيليون للاشتراك معهم في وضع «قيم مشتركة».. وثبت فيما بعد أن ذلك لم يكن إلا مناورة سياسية لامتصاص النقمة العربية انكشفت للمثقفين العرب وأصابتهم بخيبة أمل مُرّة.. هذه الحقيقة تشكل واحدة من الخلفيات التي يقف «سامي» أمامها، وخصوصاً لدى حديثه عن «لبنى».

ثالثاً: المفترض أن «سامي» يقف على خشبة مسرح منصوبة في فلسطين المحتلة ذاتها، وبالتالي فإن الجمهور الذي يتجه سامي بالكلام إليه في بعض مقاطع المسرحية هو بطل آخر في الأحداث، ليس إلا المستوطنين اليهود.

رابعاً: تشكل المسرحية - إلى جانب ذلك كله - حلقة في الحوار الثقافي والسياسي القائم بين المثقفين العرب في الأرض المحتلة ذاتها. وسنلاحظ هنا مثلاً أن حديث «سامي» عن «ذلك الشاعر» الذي اغتال القمر، في مطلع المسرحية، موجه إلى قصيدة لمحمود درويش، الشاعر البارز في الأرض المحتلة، اسمها «قمر

Twitter: @ketab_n

الشتاء» التي يقول فيها:

سألمُّ جثتَك الشهيدةْ

وأذيبُها بالملحِ والكبريتِ

ثم أعبُّها: كالشايِ

كالخمرِ الرديئةِ، كالقصيدةْ

في سوقِ شعرٍ خائبٍ

وأقولُ للشعراء:

يا شعراءَ أمتِنا المجيدة!

أنا قاتلُ القمرِ

الذي كنتم عبيدهْ!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

حيفا – ليلاً

في أحد الأحياء المحاذية للبحر، لا يظهر في المسرحية سوى شخص واحد هو سامي الذي كان يعمل مدرساً للتاريخ والأدب.

يرفع الستار عن غرفة مظلمة تماماً. يستمر الظلام، بينما يُسمع في الخارج من خلف المسرح، صفير ريح قوية ممزوج بشخير نائم.

ينقطع الشخير بينما تستمر الريح في هبوبها. صوت هذيان متقطع يأخذ في الارتفاع شيئاً فشيئاً، وفي نفس الوقت الذي يسلط فيه الضوء الأحمر على يسار المسرح، حيث يسير بعدها ببطء ناحية اليمين.

في يسار المسرح يظهر باب مغلق فيه مفتاح، ثم نافذة ذات ستار قديم في الصدر، مكتبة صغيرة تحوي بعض الكتب، ساعة حائط صغيرة تشير إلى العاشرة ليلاً.

Twitter: @ketab_n

يستقر الضوء على مكتب في أقصى اليمين تحت ساعة الحائط إلى جانب المكتبة.. ترى عليه صورة امرأة، بعض الكتب، وأوراق مبعثرة دونما نظام معين، تحتوي على بعض الكمبيالات المستحقة الدفع.. زجاجة خمر تكاد تكون فارغة وكأس، علبة سجائر من النوع الرديء فيها بعض اللفافات، مصباح كهربائي في طرفه الأيسر، مما يدل على أنها لأحد المثقفين. في أقصى اليمين من المسرح إلى جانب المكتب، باب داخلي مغلق..

يسلّط الضوء نهائياً على وجه رجل في مقتبل العمر، لحيته طويلة، ولا نظام في شعره البتة، يجلس على كرسي قديم خلف المكتب ويرتدي فوق ملابسه العادية، معطفاً شتوياً طويلاً رثاً. يُرى مستغرقاً في نومه، ملقياً رأسه على ذراعيه فوق مكتبه.. بينما بقي الكتاب مفتوحاً أمامه.

تتعدد الأنوار على صفحة وجهه بشكل جانبي.. أحمر.. أصفر.. أزرق.. أخضر. ثم تتكرر بترتيب منعكس إلى أن تتوقف عند النور الأحمر.

يتعذب النائم في الضوء، وكأنه يعاني كابوساً، ثم يسلط الضوء الأصفر. وفي نفس اللحظة يصرخ بأعلى صوته بفزع، قابضاً على عنقه بكلتا يديه مستيقظاً.

Twitter: @ketab_n

ينظر في أرجاء الغرفة مذعوراً.. بينما تأخذ يداه في الارتخاء من حول عنقه. يشعل مصباحه ذا النور العادي، وهو لا يزال يتفحص بنظره كل شيء من حوله متحاشياً النظر إلى الجمهور. يطفئ المصباح بينما يظل الضوء الأصفر يلازمه طيلة الوقت أينما وكيفما تحرك، مستقلاً عن الأضواء التي يتطلبها السيناريو.

سامي: (مشعلاً لفافة)

الكابوس.. هذا الكابوس الرهيب! (متحسّساً عنقه) مرة أخرى! وكأن أشباح الجحيم، انتقلت جميعها إلى هنا.. لتشاركني هذا القبر المتعفن! (محركاً عنقه) كادت أصابعه المتوحشة تخترق بلعومي.

(يشعل النور ثانية. ينظر حوله بخوف. يتوقف على الكتاب المفتوح أمامه يقرأ بحزم)

انهض ، انهض يا أوزيريس!

أنا ولدك حوريس ..

جئت أعيد إليك الحياة،

جئت أجمع عظامك.

وأصل أعضاءك ...

أنا حوريس الذي تكون أباه!

حوريس يعطيك عيوناً لترى،

Twitter: @ketab_n

وأذاناً لتسمع، وأقداماً لتسير

وسواعد لتعمل....

ها هي ذي أعضاؤك صحيحة،

وجسدك ينمو،

ودماؤك تدب في عروقك!

إن لك دائماً قلبك الحقيقي،

قلبك الماضي!

فانهض ، انهض يا أوزيريس! !

(يغلق الكتاب وهو ما زال يردد وبحزم أكثر.)

انهض يا أوزيريس..

يا أوزيريس انهض!

(ينظر إلى الرسم متأملاً، ثم بيأس)

لبنى! أجل لبنى! بل التنين!! من يتصور أن مثل هذه الحمامة الوديعة تتحول إلى تنين رهيب، يغرس مخالبه المتوحشة في عنقي؟

كدت أجن!! لكم تعذبني أيها الملاك التنين؟ (بضيق) هيرا!! هذه اللعنة لم تمت!

(يطفىء المصباح ناهضاً بتثاقل. يدعك لفافته في المنفضة ثم

Twitter: @ketab_n

يتجه نحو النافذة. بينما يسمع هبوب الريح بوضوح. يزيح الستار ناظراً إلى الخارج.. بأسف)

إيه... لا قمر في السماء! (يسدل الستار عامداً. يرفع يده إلى أعلى ثم ينزلها بعصبية كمن ينتزع شيئاً) قد انتزعه ذلك الشاعر اللعين من الأعالي، واغتصبه في ليلة مجنونة من ليالي الشتاء، على الشاطىء المقفر! (معبراً بحركة من يده) ثم.. ثم ذوبه بالملح والكبريت! (بسخرية) هه.. القمر! أجل. القمر بالملح والكبريت!! (باستغراب) بل وشربه! كما لو كان يشرب خمرة رديئة في ليلة إفلاس! (بضيق معبراً بيديه) لماذا لم يخنقه ذلك المجنون خنقاً؟ (ينظر إلى يديه المتشابكتين بفزع) أوه.. كلا.. كلا.. (يرخي يديه وهو لا يزال يتأملهما) كنت أفقد عقلي، لو رأيته يفعل ذلك! مجرد أن أتصوره يفعل!! (يتجه ناحية مكتبه، وهو لا يزال يتأملهما. يشعل النور ثم يقلبهما متفحصاً) خيل إلي أنهما ملطختان بالدماء! اللعنة...

(ينظر إلى الرسم بفزع. يطفىء النور ثانية. يسكب كأساً من الخمر، ثم يغمس أصبعه في الكأس محركاً، كمن يذوب شيئاً. يعب ما في الكأس جرعة واحدة.. يتجشأ بامتعاض)

لابد.. لابد وأن ذلك المجنون.. ذوّب القمر في هذه الكأس!

Twitter: @ketab_n

(باستغراب) من يدري؟ ربما كان أحد الضالعين في الاغتيال البشري! ربما كانت هذه العملية، إحدى تجاربه الخبيثة، لاختراع ما هو كاف لإبادة البشرية.. بطريقة أسهل مما هو متبع الآن! مما هو متعارف عليه بين ساسة الدول! أصحاب الحق الشرعيين، في تقرير ما إذا كانت، جديرة هذه البشرية باستمرارها أو غير جديرة!! ولكن.. ولكن أي شأن لهذا ال... (بأسف) يا إله السماء! حتى الشعراء أصبحوا... (باستغراب مفكرا) ولكن.. ولكن.. (بجدية).

قمر.. زائد ملح.. زائد كبريت.. زائد خمرة رديئة. زائد جوف مجنون ملتهب... (مفكراً) يساوي.. يساوي... (يتجشأ بامتعاض) يساوي فقاعات سامة.. (معبراً بحركة من يده) تتصاعد.. وتتصاعد إلى أن تملأ السماء غيوماً.. وغ.. (ينصت إلى صوت الريح، وهو لا يزال يعبر بيده ثم يتابع بعصبية) وريحاً غريبة مقيتة.. وأشباحاً رهيبة... (يتقدم من النافذة. يزيح الستار بحذر وينظر إلى الخارج).

لا بد وأن هذا المجنون.. العالِم في علم التخلص من العالم ونفسه! لا. وأنه من نسل الجن! أو.. أو أنه جن بنفسه؟ حتى النجوم انتزعها؟ يا للعنة.. لم يترك لي في السماء شيئاً آنس إليه.. (عائداً إلى أول المسرح) ولكن لماذا كان.. (بضيق) لا أستطيع إدراك ذلك! لماذا كان عليه أن يختار هذه الكأس بالذات! كأسي أنا!! لتكون له

Twitter: @ketab_n

ولتجاربه الخبيثة مصنعاً مشؤوماً للموت! منتهى الوقاحة..

(باستغراب) كأسي أنا! وفي بيتي أنا! منتهى...

(بجدية): قمر.. زائد كبريت زائد... الكون الخارجي زائد.. مئة مليون ميجتون زائد.. السلام العالمي.. زائد.. (يصمت مفكراً ثم يتابع) زائد.. السلام العالمي.. يساوي.. (جيئة وذهاباً) يساوي.. يساوي.. ناقص الإنسانية.. ناقص الكرة الأرضية! (بحماس) ويساوي. بالطبع يساوي التكوين.. ناقص سبعة أيام! (بحماس أكثر) وبالطبع أنها النتيجة الصحيحة الوحيدة! (بانتصار جالساً إلى مكتبه): هه! كنت أظن أنني لا أستطيع حل معادلة إنسانية.. (مستدركاً) معادلة كيمياوية واحدة! (بجدية) لا شك أن هؤلاء العلماء يعرفون النتيجة سلفاً. ومع ذلك.. لا ينفكون عن تجاربهم لها! (بضيق) وعلى حساب أشيائي الخاصة. على حسابي أنا! (ينصت إلى صوت الريح، ثم متابعاً) الريح الغربية.. (ناظراً إلى أحد الكتب على مكتبه) إيه شيللي! (بأسف) لقد جن هو الآخر.. اغتالته الريح الغربية.. ورمت به لأسماك البحر طعاماً! من كان يتصور أن أجمل الرياح تصبح قتالة مجرمة! وأن ذلك الوجه الجميل - يا للتعاسة.. يشوهه سرطان البحر!

وأن تلك العبقرية - يا للضياع - تصبح وقوداً للنار! ومن أجل

Twitter: @ketab_n

ماذا؟ (بسخرية) العدل السياسي.. أجل. العدالة! هه؟ (باحتقار) أنت الوجود للخريف النابض أيتها الريح الغربية العاتية.. ذلك الذي من وجودك الخفي أوراقه ماتت وتلاحقت، كما الأشباح تهرب من ساحر! (يسكب ما تبقى في الزجاجة من خمر ثم يشرب) كلهم مجانين أولئك الشعراء! خمر الجحيم ما تسكبه أرواحهم البائسة، إلى أن يأتي على آخر رمق في وجودها! (ينظر إلى الزجاجة بيأس، ثم يضعها مـردداً بخوف) وتلاحقت كما الأشباح! الأشباح!.. (يتحسس عنقه) يا للعنة.. كاد يزهق روحي، ذلك الشبح المتوحش! شبح لبنى ولا شك! (بغضب) كلا.. كلا.. بل شبح المالك الوقح!... (الريح بوضوح. يهب واقفاً ناحية الباب. ثم يجلس مردداً بشرود وتلعثم) عند منتصف الليل ذات مرة.. بينما في عالم الأموات زورقي، كان لموجه يفرش الشراع.. (معبراً بيديه) يدا شيتا مخيفة.. من خلف الظلام الدامس، اللتان امتدتا.. ثم.. ثم بكل ما فيهما من جن، أطبقتا حول عنقي! (بفزع) كدت أفقد صوابي.. كانت تنتصب حتى السقف! كانت تتحول، وهي تضغط على عنقي، إلى تنين رهيب! تتوقد عيناه وتلتهبان. شعرها القبيح، إلى حراشف مدببة يتحول. تنهش كل موضع في جسدي.. وفكاه المتوحشتان، كانتا تتسعان.. وتتسعان حول جمجمتي.. (مشيراً إلى رأسه) هذه...

Twitter: @ketab_n

الهاوية بعينها! فكه الملتهبة.. يا للرهبة! كنت أصرخ وأنا أتردى في أعماق الهاوية، كنت أصرخ بأعلى صوتي! كنت أهوي.. وأهوي! لم أصل إلى قرار! (باستغراب) ولكن لماذا شيتا؟ لماذا تنين؟ (ناظراً إلى يديه) أوه.. كلا.. كلا إنهما ولا شك يدان إنسانيتان! لا بد وأنني لا أزال إنساناً.. كثيرون هم الذين يمسخون في أيامنا إلى قرود! إلى ذلك النوع من الزواحف المخيفة!! قد...

(بحزم) لا... لا يمكن أن أُمسخ إلى واحد منها.. يجب أن أبقى آدمياَ.. يجب! (ينظر إلى يديه ثانية.. يبتسم بارتياح) كانت تقول عنهما لبنى، إنهما جميلتان كيدي الطفل! ولكن...

(يصمت فجأة. ينصت إلى صوت الريح ناحية الباب يفزع كمن يسمع طرقاً عليه) ولكن هذه اليد المتوحشة التي تطرق بابي، لا يمكن أن تكون يداً آدمية!

(صوت الريح ثانية. يهب واقفاً عند أول المسرح، مشيراً بيده جانباً ناحية الباب بغضب): ماذا؟... ألم يعد ثمة قانون يردع أولئك الأوغاد؟ ماذا يظنون؟ إنني متاع لهم! يقتحمون بيتي كلما شاؤوا! (يتقدم قليلاً وبسرعة ناحية الباب) كلا... لن أرضخ لمشيئتكم أيها الأوغاد... (يحذر بأصبعه متراجعاً) أيها البرابرة المجرمون! (ينصت إلى صوت الريح. ثم يغضب متقدماً ناحية الباب) لابد وأنه ذلك

Twitter: @ketab_n

الدب.. صاحب الحان! كلا... لن أستجيب لطرقاتك.. حتى ولو هشمت الباب بقبتك المخمورة (صوت الريح، مندفعاً بسرعة ناحية الباب) ما الذي تريده أيها الأهوج؟ أن أموت ظمأً للخمر! ولماذا؟ لأنني لا أملك ثمنها! (بشراسة) قلت لك كلا... لن أفتح.. حطم الباب إن استطعت! (معبراً بيديه) إنني سأكتم أنفاسك بيدي هاتين.. (ينظر إلى يديه المتشابكتين بفزع) أوه... لست مديناً لك بشيء... لست مديناً.. إنك من دمي صنعت خمرك! (صوت ريح خفيفة.. ينظر باستغراب، ثم بارتياح) إلى الجحيم.. أجل.. ربما ضغط شحمك المتراكم فوق قلبك عليه، فعطل خفقاته. ربما استرحت منك! (يجلس خلف مكتبه مشعلاً لفافة. ينفث دخانها بعصبية ناحية الرسم، ثم يراقب الدخان حتى يتبدد من حوله. ينظر إليه بحنان ثم يأخذه إليه) لبنى... أين أنت يا لبنى؟ تركتني مع الآلام وحدي. لماذا؟ قلت أنك لن تتخلي عني إلى الأبد! كيف استطعت...

(صوت الريح ثانية. يلتفت إلى النافذه بذعر) الريح المجنونة مرة أخرى. ألا تكف عن هذا العويل – بحق الشيطان – ؟ تغتالني شيئاً فشيئاً! (مصغياً) ما هذا؟.. إنه البوم ينعق في الخارج! كلا.. ليس البوم ذلك! كلا.. ليس البوم ذلك؟ إنها لبنى ولاشك! أنفاس

Twitter: @ketab_n

لبنى المخنوقة.. حشرجاتها!! (ينقر بأصبعه على مكتبه) خفقات قلبها! (يضع يده على صدره) بل خفقات قلبي.. لا يمكن! مستحيل أن تكون خفقات قلبها! (صوت الريح. يقفز ناحية الباب بذعر) وقع أقدام! أقدام متوحشة!! تدب.. وتدب.. هؤلاء الوحوش! لا بد وأنهم.. هذه الأحذية الثقلية!

يا إلهي... إنهم يقتربون! يقتربون! (بجنون متراجعاً) إلى الجحيم أيها المتسولون.. ستفتح دونكم أبوابها.. أما بابي فلا.. (مستلقياً على مكتبه بإعياء) حمداً لله.. إنهم ينصرفون.. ينصرفون بعيداً! ليأخذهم الشيطان... (بشرود مصغياً إلى صوت الريح الهادئة) «برفق فوق موج الغرب، روح الله مري» (بصمت ثم يردد ثانية) «أحلام من البهجة والفزع أمواجك، رهيبة تجعلك وحبيبة» (بارتياح معبراً بيده) رقيقة مع خاطر... (صوت ريح قوية. يصمت فجأة، ثم يفزع ناحية الباب) يا إله السماء! إنه آت! حذاؤه الثقيل! خطواته المتوعدة.. (يهب واقفا عند أول المسرح) أجل خطواته.. أعرفها جيداً! ذلك المالك الأحدب.. سيقذف بي إلى الشارع.. ذلك المستبد (بمرارة) القانون إلى جانبه.. بل الدولة وجميع سلطاتها ملك له.. رهن إشارته! حتى الحرب تخوضها من أجله لو شاء! (بغضب) أما أنا.. عضو غير صالح في الدولة!! ولماذا! لأنني لا أملك

Twitter: @ketab_n

كرشاً مثله! (محذراً بأصبعه) لم يبق لدي شيء أيها الثور الهائج. لم يبق شيء.. لقد سلبتم كل أشيائي بعتموها في المزاد العلني كلها! كلها! ولكنكم ما زلتم تلاحقونني لم يبق غير ما أبقيتم لي من هذه الكتب المتعفنة! خذها إذا شئت.. لم أعد بحاجة إليها.. (بسرعة نحو مكتبه) وهذه الكمبيالات المقيتة.. (يقذف بها ناحية الباب) ها.. ماذا تظن؟ أنك ستستعبدني؟ أن تجعل مني سلعة حلالاً لك، ولأعوانك! (محذراً بأصبعه) كلا.. وألف كلا! إنك لن تستطيع ذلك.. أنت.. وجهاز الدولة جميعه! هذا الجهاز المتعفن، الذي تديره وفقاً لأهوائك! سأقذف بكم إلى الجحيم جميعاً. جميعاً.. هل تسمع؟ لا.. لن أكون عبداً لكم.. وسأفعل ذلك وحدي.. أجل. إنني ما زلت قادراً على ذلك.. وحدي! (باحتقار) ألا يكفي أنكم أخرجتموني من عملي؟ وبعد أن جردتموني من كل شيء، لكي أموت جوعاً، وليسهل قهري عليكم!؟ ولماذا؟ لأنني أشكل عليكم وعلى مصالحكم المقيتة خطراً! لأنني أزيف التاريخ كما تدعون! لأنني أشوه الأدب!! أما أنتم فلا؟

(بغضب) وماذا أردتم؟ أن أعلم أبناءكم كيف يكونون ذئاباً بشرية مثلكم؟ كيف يمتصون الدماء؟ (ينصت باستغراب. بسرعة نحو النافذة. يزيح الستار ثم ينظر خارجاً) غريب! إنه ينصرف!

Twitter: @ketab_n

يغيب في آخر الزقاق!! (بارتياح عائداً إلى مكتبه) حمداً لله... (يشعل النور، ثم يطفئه شاهقاً بفزع) إنه يعود! يا للعنة... هذا الثور الهائج! (بسرعة نحو النافذة ثانية. يطل بحذر) يا للوقاحة. إنه يتوقف! هذا الثور.. إنه يتفحص نافذتي بنظراته الخبيثة! عيناه المتوقدتان في النور.. (يرخي الستار متراجعاً) باستطاعة هاتين العينين.. اختراق أسمك الجدران.. وأحلك النوافذ ظلمة! هاتان العينان... (بغضب متوقفاً) لا يوجد غيري هنا! إنني.. إنني لا أعرف أين هي! إنني لم أر وجهها منذ ذلك اليوم الذي.. (بضعف) قالت أنها لن تدعني أراها ما حييت! (يقترب من النافذة ثانية. يزيح الستار ناظراً) يا إلهي!.. إنه ينصرف! يغيب في الزقاق مرة أخرى! (عائداً إلى أول المسرح) إنهم يحطمون أعصابي.. هذه الحرب المقيتة معهم.. تكاد تفقدني كل رغبة في المقاومة.. إنها تشل أعصابي.. تشل نفسي شيئاً فشيئاً (بحزم) ولكنني لن أستسلم لن أستسلم أبداً!

(يلتفت ناحية الجمهور باستغراب. يتفحص الحاضرين بارتياب وكأنه يراهم لأول مرة! يقترب منهم قليلاً وهو لا يزال يتفحصهم) يا إله السماء! أنتم... ماذا تفعلون هنا؟ كيف دخلتم داري بحق الشيطان؟ كيف استطعتم ذلك؟

Twitter: @ketab_n

(بغضب) ماذا! ألم يعد ثمة قانون في العالم؟ (باستغراب) منتهى الوقاحة! إنني لا أستطيع أن أتصور! كيف يسمح شخص لنفسه دخول بيت غير بيته. ودون إذن صاحبه؟ (بغضب) حتى حديقة الحيوان... بل والمقابر أصبح لدخولها وقت معين! بل وثمة أبواب لها تقفل على موتاها!! إنني.. إنني لا أفقه كيف تدخلون بيتي كما.. كما لو كنتم تدخلون حاناً.. أو.. أو مرحاضاً عاماً؟ (بضعف) هل مدين لكم أنا بشيء؟ (بغضب) كلا. إنني لا أسمح لكم أن تتسللوا إلى بيتي.. إلى حياتي الخاصة! إنها ملك لي.. ولي وحدي.. (بثورة) لماذا تنظرون إلي هكذا؟ سترمونني بالجنون.. ها! أليس من حقي الثورة لحريتي.. ستدعون بأنني أعتدي على حريتكم! ولكن إلى الجحيم.. أنتم.. وحريتكم.. تلك التي تبنونها على حطام حرية الآخرين.. حطام حريتي.. حطامي أنا! (برزانة) إنكم تستطيعون ممارسة حقكم في الحرية.. دون قتل حريتي لو أردتم! إن أحدا لن يمنعكم من ذلك!! فلماذا على حساب حريتي إذن؟ ولماذا ينبغي علي أنا، أن أدفع الثمن من حريتي؟ هل حاولت أن أسلبكم مرة حريتكم؟.. (بحزم) كلا! إنني لم أفعل.. بل ولم أفكر في ذلك أبداً. وإذا كنتم تدعون بأنني فعلت.. فإنما لتبرروا جريمتكم.. تلك التي ترتكبونها في حقي.. وليس إلا.. (بارتياب) لا

Twitter: @ketab_n

إيه لبنى...(بصوت حالم) «أجمل العينين عيناها. وأحلى السوسنات صدرها... والدمع بارع فهو في الصدر خفوق، وهو في العين صلاة. كوننا ما زال رائعاً..» (بيأس) هكذا كنت أغني لها.. هكذا كنت أغني لها.. للبنى حبيبتي! ولكنها أغلقت عن غنائي أذنيها وتركتني هكذا وحدي فريسة للوحدة.. يعذبني الليل، ويأكل روحي النهار!

(بمرارة) لا.. لم يعد كوننا رائعاً. بل جحيماً لا يطاق أضحى.. (بضيق) الريح الغربية.. الأشباح.. طرقات أحذية الوحوش في قلب الليل.. وحرية الذئاب الآدمية! (بحزن) وشبحها.. طيفها.. ذلك الذي تطير روحي خلفه كلما مر بي.. كما إلى النار تطير الفراشة! (كمن يرى طيفاً) «يا حبيبتي.. إلى أين تخطرين؟ فإن عاشقك المخلص آت. حبيبك الذي يغني لك أجمل الألحان...» (ببكاء ناحية الباب كمن يفقدها) لبنى.. لبنى.. (بيأس عائداً إلى مكتبه) طيفها مرة أخرى! كم يعذبني أن أفقدها! (يجلس إلى مكتبه بعياء. ينصت إلى صوت الريح الهادئة ثم يدندن بصوت حالم) أنت معي.. فلتعصف الرياح.. لتقصف الرعود.. (بحنان) جميلاً كان صوتها.. لبنى.. (بأسف) هكذا كانت تغني لي، كلما أكون لديها على شاطىء البحر.. كانت تحبني.. كنت أحبها.. حداء النفس التائهة كان صوتها! (ينصت إلى صوت الريح ثم يردد ثانية) أنت معي.. فلتعصف الرياح..

Twitter: @ketab_n

ولتهطل الثلوج... (بشرود) مع أنسام الصباح.. ودفق عبير الشمس عبر نافذتي.. كان يدلف إلي ذلك الهديل الرخيم من خلف شباكها.. وعند المساء.. كنت ألم ببيتها لأسمعها..كانت دائماً تغني.. فتعلق على شباكها قلبي وذات صباح طروب رأيتها.. بحيرة الاخضرار رأيت! تلك المترامية على هدب الأفق البعيد في عينيها. وذلك الفجر الملوح في وجهها الصغير! وتمطي الحرير، على ياسمين الشرفات. بله الأنوثة المحوم جذلان، على تفتح القرنفل فوق صدرها! (بأسف) إيه يا بحيرة الاخـضـرار.. يا حديقة الوجد المزهرة.. أي إعصار بدوحك مر؟ أي تنين بنبعك يا غدائر العنبر سكن! أي لبناي.. لبناي الضائعة.. (ببكاء) أنت معي.. أجل. فلتعصف الرياح.. فلتعصف.. فلتهطل الثلوج. فلتهطل... أنت معي.. ضمني إليك يا حبيبي.. أكثر.. أكثر.. موقد دائم الدفء قلبك لي!.. لي!... أنت معي.. (بيأس) أين ذهبت كل هذه الهمسات في عصف الرياح؟ وتلك الغمغمات على تقصف الشاطىء عند قدمينا! كيف نسيتها يا لبنى؟ كيف؟ وكأنك لم تتفوهي قط بها! (يأخذ الرسم إليه متأملاً بشرود) لبنى كما عرفتها.. (يضع الرسم متذكراً) إحدى ليالي الشتاء القاسية كان ذلك.. أول إشراقة في قدري كانت.. أول شرارة في موقد قلبي! (بحنان ومحبة ناهضاً) كبسمة الدفء أطلت من

Twitter: @ketab_n

أستطيع فهم ذلك! لماذا تنظرون إلي هكذا؟ عليكم اللعنة.. ما هذه المهزلة التي تمثلونها! (مشيراً إلى أحد الحاضرين) أنت.. لماذا تنظر إلي هكذا؟ كيف دخلت بيتي؟ لماذا؟ وبأي حق فعلت؟

(بغضب) لماذا لم تذهب إلى أي مكان آخر؟ إلى الجحيم مثلاً.. لماذا بيتي أنا بالذات!؟ (باستغراب) يا إلهي!.. هل نظرت إلى عينيك؟ إنهما تتوقدان.. إنهما.. إنهما.. لابد وأنها ذئبة تلك التي أرضعتك! من يدري أي شيطان.. ذلك الذي يسكن هذه الرأس الآدمية! (إلى آخر) انظر إليه .. ألا تعتقد أنت الآخر أنه..أنه كمن لو كان... (بضيق) لماذا تحدق أنت الآخر بي هكذا؟ يا للرهبة.. إنك لا تختلف عنه! (ينقل نظره بين الاثنين) إنني لم أعد أفرق بينكما! (يلف الجميع بنظرات حادة) يا للعنة.. ما الذي حدث بحق الشيطان!؟ لماذا تتخذون جميعكم نفس الهيئة عندما أنظر إليكم! هل تآمرتم علي جميعاً؟ (يتفحصهم بارتياب) مستحيل هل أشبهكم أنا بشيء؟ (بحزم) كلا.. كلا.. يستحيل ذلك! إنه لمريع أن.. أن.. (متراجعاً بيأس) لبنى... لو إنك الآن هنا يا لبنى.. كنت تقذفين بهؤلاء الذئاب إلى الشارع.. إلى الشارع... ولكنك.. ولكنك بعيدة عني الآن.. لقد رحلت بعيداً.. هجرتني.. لابد أنك فعلت ذلك بإيعاز منهم! فقد سيطروا على رأسك الصغير.. استعبدوا غباءك! (بأسف)

Twitter: @ketab_n

خلف متاهة عمري. رقيقة عذبة.. فخشعت في محراب تلك الإلهة الصغيرة، في مسالك الغاب أصلي.. (راكعاً معبراً بيديه) «أجل يا حبيب القلب.. إن هو إلا حبك هذا النور الذهبي الراقص على الغصون.. وهذه الغيوم الكسلى السابحة في الفضاء.. وهذا النسيم الراكض منعشاً مني الجبين..» (ينهض متثاقلاً ناحية الجمهور (هكذا رحت أصلي لها بعد أن عرفتها.. لعشتروت. عشتروت الصغيرة الساذجة! عشتروت الحمامة.. عشتروت الأم.. وعندما كانت بشهور حملها الأولى.. (مبتسماً بسعادة) جميل ذلك.. لبنى.. (معبراً) لبنى حامل!.. (ضاحكاً) كدت أجن.. تلك الإلهة الصغيرة.. حامل.. إله صغير يلجأ برفق إلي.. إلي.. لقد توردت وجنتاها حين.. (بخجل) حين رحت أتحسس ذلك التكور البديع.. زجرتني عندها خجلى.. كنت كالطفل أتوق لرؤية تلك الدمية.. دميتي التي تخبئها لبنى.. لقد ضربتني على يدي تردها.. (بحماس) فضممتها إلي.. رحت ألثم وبكل حبي كل موضع في جسمها.. خصلات شعرها.. جبينها.. أهدابها.. تورد وجنتيها.. شفتيها.. وذلك التكور البديع.. تلك الدمية المخبأة لي باحتراص! كانت تبعدني عنها خجلة.. (راكعاً) إلى أن ركعت على قدميها الحافيتين تينك القدمين الجميلتين.. قدمي عشتروت الصغيرة.. عشتروت الأم.. المبللتين بقطرات الفرحة من

Twitter: @ketab_n

دموع سعادتي (ناهضاً بحماس) كالظل بقيت أجلس عند قدميها.. تلك الشهور من حملها.. كنت لا أفارقها.. والدة الإله.. كنت أقوم على راحتها بنفسي.. أرقب ذلك التكور يعمر بالحياة.. وبفرحة طفلة.. يوماً بعد يوم! وعندما كانت تغفو إلى جانبي.. كنت لا أنام! كنت أرقب ذلك التكور يعلو بهدوء ويهبط.. (ضاحكاً) كنت أتخيله يكبر.. ويكبر.. ومن ثم.. كما تفتح الزنبقة أجفانها، أتصوره يتفتح! ويطل من خلاله ذلك الوجه الصغير.. ذاك الملاك الوديع.. فأبسط راحتي لاحتضانه.. كان يفر.. ثم.. ثم يختبيء! وتغمض الزنبقة أجفانها.. فأغمض على روعة إغفاءتها جفني! (بسعادة) كنت سعيداً.. ملأت البيت بالدمى الصغيرة! (بحماس) كل أنواع الدمى! نزعت عن فساتين الغيوم زركشها، وطرزت بوشيها فساتين دماه! إلى الورود الراقصة مددت يدي.. ومن ثناياها حفنت مرح ألوانها.. وزركشت بها مهده الصغير! أجل.. حتى المهد أحضرته له! يتحتم علينا ذلك.. أن نمنح السعادة أطفالنا.. أن نمنحهم الحياة سليمة لكي يستمروا بها.. أن نحملهم مشعلها كما ينبغي أن يحملوه!

(بيأس) ولكنه.. ولكنه لم.. (يلتفت إلى ساعة الحائط بذهول) يا إلهي! كان علي أن أذهب!.. لقد تأخرت! (يلتفت ناحية النافذة منصتاً ثم بارتياح) لقد هدأت الريح.. (يتقدم منها ويزيح الستار

Twitter: @ketab_n

ناظراً إلى الخارج) الزقاق مقفر.. والموت كفن نوافذه! (يتجه ناحية الباب مصلحاً من شأن معطفة بارتباك) لابد وأنها تنتظر. كانت تنتظرني في مثل هذه الساعة دائماً.. يتحتم علي أن أذهب! (يفتح الباب، ثم يقف به ملتفتاً إلى ساعة الحائط) هذه الساعة اللعينة كم تخونني! كان علي أن أحطمها. يجب أن أحطمها! لقد فاتني موعدي مع لبنى.. تأخرت عن زيارة طفلي! ملعون ذلك الذي يسلم للنسيان أبناءه فلأذهب الآن.. (يخرج مغلقاً خلفه الباب).

Twitter: @ketab_n

يُرفع الستار عن نفس الغرفة، ونفس الأشياء في الفصل الأول. يستمر الظلام فترة وجيزة، بينما يسمع في الخارج صوت ريح قوية.

يُسلط الضوء الأحمر على ساعة الحائط، ثم على الكرسي الخالي أمام المكتب. يسير الضوء ببطء من اليمين إلى أن يستقر على باب الغرفة في يسار المسرح، بينما يسمع سعال مكتوم خارج الباب ممزوجاً بخشخشة المفتاح وكأن فتحه يستعصي عليه.

يشق الباب محدثاً صريراً. ثم يدخل سامي بشكل جانبي، ملتصقاً بدفته مضطرباً، وهو لا يزال يسعل، يرافقه الضوء الأحمر حتى النهاية.

(بغضب وهو يحاول إغلاق الباب ساعلاً) هذه الريح المجنونة.. لا بد وأن إله الريح قد جن! عليه اللعنة.. هذا الشقي.. اللعنة على كل شيء! (يوصد الباب من الداخل) وعلى هذا الباب اللعين! (يتأكد من إيصاده) لم يدخل إلي منه غير الشقاء! (يبتعد قليلاً ثم يعود ليتأكد من إيصاده ثانية) ألا تستطيع البشرية الحياة دون

Twitter: @ketab_n

أبواب!؟ (ساعلاً) أما حان لهؤلاء الجبناء الكف.. عن افتراس بعضهم البعض؟ (يتجه نحو النافذة ممسّداً شعره المنفوش) أي لعنة تلك التي راحت تغتال سلام الليل، وتهتك صمته بحوافر جيادها الجنية.. وصهيلها الرهيب! (يزيح الستار ناظراً إلى الخارج) ليشمل الموت هذه المدينة إلى الأبد... (يتأكد من إغلاق النافذة) الريح الغربية! هذه الريح الرهيبة العاتية! لم تعد هناك رمال على الشاطىء! كدت أجن! يا لهول ما رأته عيناي! يا لبشاعة الأشياء!؟ (يزيح الستار ثانية ناظراً إلى الخارج) شاطىء الموت! لم يعد ثمة سرطان واحد في أعماق البحر! أوه.. يا للرهبة، أمواجه المظلمة الرهيبة، كالأشباح المفزعة كانت تزحف نحوي! كانت ترتفع.. وترتفع.. ثم تندفع خائرة، كانت تتلوى على قدمي بوحشية.. كانت قدماي تنزلقان نحو الهاوية بقوة! كدت أستسلم لطغيانها! كدت أقفز في لجة ليلها المفزع! (بضعف معيداً الستار) في مثل هذه السرعة! أوه.. يا للشقاء.. من كان يتصور! (بغضب متجهاً إلى مكتبه) لماذا لم تحمل هذه الريح المتوحشة، مياه البحر معها إلى الجحيم! إلى أي مكان آخر؟ لماذا رمال الشاطىء؟ أليس غير الرمال في العالم تحملها معها!؟

(يلتفت ناحية النافذة مشيراً) لماذا – بحق الشيطان – لم

Twitter: @ketab_n

تحمل معها هذا العالم الآسن.. ربما أتت بعده بعالم أفضل.. أو.. أو هذه المدينة الزانية!؟

(ناحية الجمهور بحدة) أو هذا القبر.. هذا البيت وكل أشيائه المنحطة! ولكنها لم تفعل! مجرد أن تتحداني.. أن.. أوه.. تلك الرمال.. يا للعنة! (يجلس إلى مكتبه بإعياء ضارباً على ركبته) لا بد وأنها ليلة من الإفلاس، تلك التي تمخضت عني! (بصمت.. ثم بسخرية) هه.. في المرحاض! مسكينة أمي.. ألم تجد غير المرحاض تسقطني فيه؟ (بيأس) يا للتعاسة! هل ضاقت بها الدنيا! في المرحاض! (بغضب) ولكن ثمة مبرر لم يكف لها! إنها تلك الطائرات المفترسة... إنها هي التي ولدتني في المرحاض، وهي تلد الجنون بعينه، مع مئات القنابل.. والتي كانت تصبها تلك الليلة على هذه المدينة.. ودون انقطاع! تلك الرعود البربرية... وتلك الزلازل المفزعة، هي التي تمخضت عني.. وفي المرحاض! وكأنني.. وكأنني.. (بعصبية ناهضاً ناحية الجمهور) أي ليل من الخوف والرعب!؟ (مشككاً) ولكن.. أليس هو الإفلاس بعينه؟ إفلاس العقل! إفلاس العالم من كل قيمه الأخلاقية! بل إفلاس الإنسانية بأسرها!؟ (بغضب) وماذا غير ذلك يعني.. أن يستبق ذلك الجحيم مولدي؟ أن أكون وليد خوف ورعب! أن تنحي الخالق عصبة مجنونة من

Twitter: @ketab_n

الحدادين والنحاسين عن إدارة مصنع الحياة.. ولتستبد هي به! أليس الجنون بعينه؟ بل منتهى الجنون! أن يصبح الحداد والنحاس مسؤولين عن هذا المصنع! (بسخرية) هه.. أنا.. هه.. من صنع حداد! ولا بد أنني سأنتهي على يديه! (بمرارة) يا للتعاسة.. إنني لا أستطيع تصور ذلك! ولكنها الحقيقة... والبرهان على ذلك، أنني ولدت في المرحاض! (بسخرية) الحرب.. الحرب من أجل الحياة الأفضل! هه.. من أجل أن تضعني أمي في المرحاض! وقبل أن يحين مع ذلك موعدي! أجل. من أجل أن تكون المراحيض مهود ولادة للبشرية! ولماذا؟ لكي أحيا حياة أفضل! يا للشقاء.. (ناحية الجمهور) هل.. هل.. (توقف فجأة. يتفحص الجالسين بارتياب، مشيراً ناحية الجمهور باستغراب) ماذا؟ أنتم.. ألا تزالون هنا! ماذا تفعلون هنا بحق الشيطان! أوه.. يا للغباء! ظننتم أنني سأترك هذا البيت لكم! بل يا للوقاحة! منتهى الوقاحة! كدت أنسى أنكم هنا! كدت أنسى تماماً! ما كان علي أن أفعل.. يتحتم علي ألا أغفل عن ذلك مطلقاً! إنكم تحتلون بيتي.. تسرقون حريتي، ودون مبرر دون أن يردعكم قانون عن ذلك! لا.. لا.. لن أنسى مطلقاً.. أعدكم بذلك.. إنه لسوء حظكم! ولكنني سأبرّ بوعدي! (بسخرية) إنكم تضيقون – ولا شك – بي ذرعاً! ها.. (بجدية) إنكم على حق! طبيعي أن

Twitter: @ketab_n

يضيق المجرم بآثار جريمته! وطبيعي أن يدفعه ذلك إلى ارتكاب جريمة غيرها.. بل التمادي في جرائمه.. حتى يتمكن أخيراً من القضاء على كل ما يذكّره بجريمته الأولى! قانون ذلك.. بل دستور هو عندكم وشريعة! (بارتياب) لماذا تنظرون إلي هكذا؟ لماذا تتخذون جميعكم نفس الهيئة حين أنظر إليكم.. أو أحدثكم!؟ هذا التجهم القبيح.. هذا الصمت الرهيب، هذه الشراسة الساكنة في أشداقكم! يا إلهي! ما أسرع أن تتحول سحناتكم إلى أشكال مفزعة! إلى وجوه متوحشة بشعة! حتى أنفاسكم.. ثقيلة وبطيئة! وكأنها لهثات الذئاب المتضورة جوعاً.. فحيح الأفاعي المتحرقة إلى الدماء عطشاً! (بجدية) لم أرتكب خطأ.. إنها الحقيقة! ولكني تماديت في ثرثرتي، وكأنه لم يبق لدي ما أفعل، ما كان علي إزعاجكم بمشكلة تخصني وحدي وتقلقني! لا أدري! ربما كانت تخصكم أيضاً؟ بل لا بد وأن تخصكم.. إنني لم أدعكم إلى بيتي! ولكنكم دخلتموه دونما إذن مني! اقتحمتموه علي اقتحاماً! (مشيراً إلى إحدى الحاضرات) هل تخصك هذه المشكلة؟ أعني.. أعني أن تكوني مجرمة.. وأن تقضي على كل أثر لجريمتك!؟ (مستدركاً) أوه.. لم أقصد.. كنت أعني.. أعني.. أن يكون جنينك من صنع حداد.. ثم.. ثم يميته؟ أجل. هذا ما كنت أعنيه بالضبط!

Twitter: @ketab_n

(بسرور) أشكرك.. لا يتحتم علي ذلك. ولكنني أشكرك! مجرد أن تفهميني.. مجرد أن تنتصري لرأيي.. مجرد أن تحاولي إقناع غيرك بصحة رأيي.. تميل بكفة الغلبة لي في النهاية.. وانتصاري! طبيعي أن لا توافقي.. لابد وأن يكون جنينك خلقاً إنسانياً!

(بحماس متراجعاً) أي أم توافق على جنون كهذا.. أن يكون المرحاض مهداً لوليدها؟ لا توجد أم في العالم توافق على ذلك! يتحتم علينا جميعاً أن لا نوافق.. أن ننتصر لجميع الأمهات في العالم!

(بغضب) ولكن أمي.. أجل ولدتني في المرحاض.. أحد في العالم كله لم ينتصر لها! أم واحدة لم تعترض على ذلك! ما كان يحدث – بحق الشيطان – لو أنها.. لو أنها لم تتلقفني براحتيها! ما كان يحدث لو أن ذلك الجحيم اجتاح العالم وهي.. وهي تجلس على كرسي المرحاض! (باحتقار) بالطبع.. طبيعي أن تضحكوا! إنكم تعتبرونها قضية خاصة.. طبيعي أن لا تشذوا! قانون هو أن تدركوا الحقيقة بعد فوات الأوان! هذه طبيعتكم! نهاية العالم.. كيف يمكن لأمّ أن تضحك من مأساة كهذه! كيف يمكن لأمّ أن لا تثور لامتهان أمومتها!؟

(بحماس معبراً) أي أم لا ترغب في أن تأخذ طفلها إليها.. أن

Twitter: @ketab_n

تضمه إلى صدرها، وتقبل ثغره.. أن تراقبه وهو يلوك ثديها بلثته اللحمية.. ويدغدغه بيديه الصغيرتين! منتهى السعادة.. كل أم تحب ذلك!

(بحزن متراجعاً) ولكن أمي لم تحظ بذلك.. إنها لم ترني ولو لمرة واحدة ألثم ثديها! في نفس اللحظات التي كانت تمنحني فيها الحياة.. كانت تفقد هي حياتها! (بنقمة) النزيف.. النزيف الأحمر القاني أجل. إنه هو الذي قتلها، ودون أن يستطيع والدي، أن يفعل من أجلها شيئاً! أي شيء! (بغضب) وما الذي كان يستطيع فعله، وفي ذلك الجحيم الذي كان يجتاح العالم؟ ماذا؟ إنه لم يكن يعلم! إن أحداً لم يستشره! بل تآمروا عليه جميعاً (بثورة). أجل. تآمروا عليه.. العالم بأسره.. وسيظل ذلك النزيف القاني لطخة جريمة مروعة.. تلوث يديه أبد الدهر.. العالم بأجمعه! أجل. العالم بأسره.. هو المسؤول عن هذه المأساة الأليمة.. مأساة ولادتي! على كاهله سيحمل وزرها إلى الأبد.. إلى الأبد! (بضعف) أليس هو البؤس بعينه، أن يرضع الإنسان ثدياً غريباً عنه.. أن ينشأ ويكبر مع مأساة ولادة كولادتي! (بحزن) حتى أبي.. ذلك المسكين.. لقد جروه هو الآخر إلى الموت قسراً.. كان يحمل الموت معه للآخرين! (بحماس) إنه لم يوافق مرة على ذلك! لكنه أُرغم.. لم يكن له ثمة

Twitter: @ketab_n

مبرر.. إنها الحرية.. الحياة الكريمة! (بشرود) أخذني إليه يقبلني.. كان يغالب دمعه.. كنت ألهو حينها مع الأطفال. أجابني بأنه سيعود قريباً! سألته عن سفره.. وعن تلك الملابس الرهيبة.. كان يبدو مرعباً.. (ببهجة حزينة) قال لي أنه يحبني كثيراً! (بأسف) وحين استقل السيارة.. (معبراً ببكاء) جريت خلفه.. كنت أصرخ بأعلى صوتي منادياً.. أبي.. أبي.. كان يلوح لي وهو يبتعد.. ويبتعد.. كنت لا أزال أجري خلفه.. وأجري! رأيته يمسح دموعه وهو يلوح لي.. إلى أن غابت السيارة بعيداً! إلى أن غاب والدي! إنه لم يعد بعد.. لقد غاب إلى الأبد!؟ (بضعف) لم أره منذ ذلك اليوم.. كنت في التاسعة من عمري.. في التاسعة فقط! يا للضياع! (بشرود يائس) وأخيراً بقيت وحدي.. لقد ذهبوا جميعاً! أمي.. والدي.. ذلك الإله الصغير طفلي.. لبنى..

حتى لبنى تركتني مع الآلام وحدي.. لم يبق لي شيء! لا شيء! (يجلس إلى مكتبه بإعياء) لا شيء.. الريح الغربية دائمة الهبوب.. لعنة المرحاض.. المجانين... رمال الشاطئ المتعفنة.. ومن ثم سرطان البحر! أجل. سرطان البحر! هذا السرطان المسعور، ذلك القطيع المفزع! لم يبقَ في أعماق البحر سرطان واحد!! كانت جميعها تزحف على الشاطىء.. كانت تغرس مناقيدها المسننة

Twitter: @ketab_n

المتوحشة في أعماق الرمال.. وهي تنهش.. وتنهش.. أوه يا للرهبة! (يصمت. ينصت إلى صوت الريح. يدندن بشرود ثم يردّد) ذهب الصيف.. ولم تعد هناك طيور تغني.. ماذا أفعل الآن، وقد تركتني وحيداً.. تركتني وحيداً! (يدندن. ثم يصمت منصتاً إلى صوت الريح) ولكن لماذا تركتني وحيداً يا لبنى؟ لقد أحببتك.. بل عبدتك! كيف استطعت؟ كيف!؟ أن تحطمي حياتي. لقد قضيت أجمل سني عمري أناضل من أجلها.. (بضعف) بلا مأوى كنت.. بلا طعام، كان مأواي في الليل محطات القطار، وعفن الميناء في مخازنه مع الجرذان! وفي النهار، في جحيم الشمس.. وزفير المداخن الخانق! كي اوفر الراحة بعدها لعيشي! كان علي ان افعل ذلك لوحدي.. وحين حصلت عليها! اياها سلبتني! لقد سلبتني كل شيء!! (بغضب واقفاً) ولماذا؟ من أجل كل ذلك الجنون الذي تماديت فيه! (بيأس) أولئك السحرة المحتالون.. لقد سلبوا عقلها.. أولئك اللصوص المتآمرون! تلك الرأس الغبية! أحدّ خنجر يصوب إلى قلبي.. أثقل صخرة تشد إليها رجولتي! كيف؟ كيف!؟ إنني لا أستطيع أن أتصور (بشرود) يا إلهي.. تلك الرأس الصغيرة! من كان يتصور!! عندما عرفتها لأول مرة.. كانت بسيطة ساذجة.. رقيقة عذبة.. كان ذلك الحزن الوديع الساكن في عينيها يزيد من سحرهما.. أجابت من

Twitter: @ketab_n

خلف حزنها ذات مرة.. أن لا أحد في الدنيا لها! أخبرتني بأنهم تحت الردم جميعاً.. وذات ليلة مجنونة من ليالي الحرب!! (بعطف) كاد قلبي يتفطر حزناً.. شعرت أنها قريبة مني.. قريبة جداً! أحسست أنني في أمسّ الحاجة إليها.. لأن تكون إلى جانبي.. لأن تشاركني شيئاً ما.. مأساة ولادتـي! لعنة تيهي وتشردي! (بأسف) ولكنها تغيرت.. تغيرت تماماً! إنها لم تعد تلك التي كنت في حاجة إليها! تلك الساذجة الطفلة!! ذلك الحزن الساكن في عينيها.. لقد تغير كل شيء! (بضيق وتشكٍّ) إلى نَمرة شرسة تحولت، وفجأة! على أطراف فكّيها المفترستين.. كانت الدماء لا تنفك تقطر.. يا للتعاسة.. كان صعباً عليّ أن أصدّق! في الصباح تركتها ذلك اليوم.. في الصباح فقط! وحين عدت إليها في المساء. كان كل شيء قد تغير! ليست العينان عينيها.. ولا الشعر شعرها! كل شيء أصبح غير الذي كان في الصباح حين تركتها! بحثت عن تلك الواحة الخضراء في عينيها، فلم أجدها! كان وجهها.. كان صحراء لوّن الكبريت المحرق رمالها! حتى شعرها.. أجل شعرها! كان على النمرة أن تستكمل شكلها تلك اللبدة الصفراء الرهيبة.. كانت تغمر رأسها ووجهها.. بل وعينيها المشعّتين بحقدهما.. كانتا تتوقدان من خلالها!

(بخوف) لم أجرؤ على الاقتراب منها.. كدت أفقد – يا للرهبة

Twitter: @ketab_n

- في جحيم تينك العينين عقلي! حسبت أنني بنوع من عمى الألوان أصبت فجأة! ولكنها كانت هي. أجل هي.. النمرة الشرسة! كانت هناك.. في زاوية البيت تربض.. إنه الجنون بعينه! لم أجرؤ حتى على الكلام.. على استرداد لبناي.. صديقتي.. (بحنان) كان ذلك التكوّر الجميل.. ذلك الجنين الخالد إلى رحم النمرة ولدي أنا.. يمنعني من أن أعارضها في شيء! كنت أريد لها السعادة.. كل السعادة، وفي كل شيء! على حسابي.. حساب سعادتي! أجل. هكذا كنت أعاملها دائماً! ينبغي علينا جميعاً، أن نعامل نساءنا الحوامل هكذا فبعضنا ذلك الذي يحملنه لنا في أرحامهن ويحرسن! (بسعادة) هل أجمل من أن يرى الإنسان بعضاً منه ينمو ويكبر؟ يمتص الحياة ليخرج إليها! وليملأ عليه بالسعادة عالمه!؟ ولكن.. ولكن.. (بيأس) كيف استطاعت ذلك؟ كيف!؟ لم يحدث في التاريخ.. لقد تعلمته جيداً. أجل. لم يحدث أبداً! نمرة واحدة لم تفترس طفلها! أما هذه النمرة الشرسة.. النمرة مفترسة أطفالها لقد افترسته.. أجل. اغتالته! كيف استطاعت ذلك - بحق الشيطان - كيف!؟ أن تجهضه بيديها هي! بيديها المجرمتين فعلت ذلك! (بغضب) كذب ذلك.. منتهى الكذب! لم يكن أبداً ضعفاً في الدم! لم يكن مطلقاً سوءاً في التغذية! أبداً لم يكن! كلّهم كذابون أولئك

Twitter: @ketab_n

الأطباء.. أفاكون جميعاً! بيديها المجرمتين فعلت ذلك.. وبإيعاز منهم! لقد ساعدوها على ذلك.. ولماذا؟ لأنه سيكون ولدي! (بأسف) يا إلهي.. لقد أحضرت له المهد! إنه لم يره! كيف ندع للأرض بحق السماء.. أن تستقبل اطفالنا! وقبل أن تستقبلهم مهودهم!؟ قبل أن يروا على درب الحياة نورها.. وهم الحريون بحمل مشعلها!؟ مشعلها المقدس. يا إلهي.. ذلك الوجه الجميل! تانك العينان! (ببكاء) ذلك الإله الصغير!؟ كم كنت أمني النفس به عزاء.. أن أراه يعبث بأشيائي.. بأشياء البيت كلها! أن يملأ عالمي هديلاً عذباً.. أن أراه على الشاطىء يجري ويمرح.. في رماله الناعمة يغرس قدميه الصغيرتين.. وبيديه الطفلتين يصنع منها بيوت أحلامه. أن أشاركه مرحه ولهوه. أن آخذه إلى صدري، أحكي له الحكايا. قصص آلهات الإغريق والأميرات الجميلات. أن أغني له أجمل الألحان.. أغان للجمال والحب عذبة.. متناسياً في روعة السحر على بسمته، كل مشاكل الحياة من حولي وجحيمها.. وتلك اللعنة التي لا تمحى.. لبنى! (بجزم) يتحتم علينا ذلك! أن نتنازل عن كل سعادة في الدنيا، مقابل ما يمنحنا أطفالنا من سعادة! أن نمنحهم نفوسنا! (مشيراً إلى إحدى الحاضرات بإشفاق) هل رأيت قبره في الخارج؟ هناك عند مدخل البيت! ذلك القبر الصغير.. (بسعادة حزينة) إنه جميل!

Twitter: @ketab_n

أليس كذلك!؟ (بأسف) لقد ذوت جميع أزهـاره.. لم تعد لبنى تسقيها.. وشغلتني بمشاكلها وجنونها عنه! مؤسف ذلك! ولكنه ما زال جميلاً! (ببكاء) كلها جميلة.. تلك القبور التي تحوي في داخلها أطفالنا.. كلها عزيزة علينا! (يردد بشرود) «على شواطىء العوالم اللامتناهية أطفال يحتشدون، العاصفة تدور في الجو على غير هدى، والسفن تغور في اليَمّ معدومة الأثر، والموت جوابه يترصّد، والاطفال يلعبون، على شواطىء العوالم اللامتناهية حشد من الأطفال عظيم!» (ببكاء) كم طويلة هي الساعات التي قضيتها.. في ضوء القمر إلى جانب قبره! لقد فقدت كل شيء بعده.. كل سعادة! (بإعياء) ولماذا؟ لأن لبنى أصبحت تؤمن بالحرية.. حرية الذئاب.. تلك التي لقنوها! (بغضب) حرية ماذا؟ أن تهدم حريتي لتبني على أنقاضها حريتها.. أن تستردّ حريتها المسروقة في تشردها وتيهها.. وما سلبتها الحرب من حقها في الحياة من حريتي أنا! أجل.. أن تنتزع رئتي، لكي تتنفس هي بها! لقد علموها ذلك جيداً.. أولئك الذئاب! (بثورة) ملعونة تلك الحرية.. وملعون كل ناشدِ لها! (بيأس) ألا يكفي ذلك لأن يفقدني صوابي! لأن يجعلني أفرّ بعيداً، ولو إلى الجحيم نفسه! لقد أرادوا لي ذلك.. (بحزم) ولكنني قررت ألا أفعل. وأن أقف في وجههم جميعاً! بل قررت أن أنتقم.. أن أنتقم لنفسي

Twitter: @ketab_n

ولحريتي.. أن أخلق من هذا الجحيم الذي خلقته لي لبنى، جحيماً لها.. ولكل أولئك الذئاب.. ولكلبها الوقح.. ذلك الذي أحضرته لتعوض به عن الأطفال .. وليحتل فراشي.. إنني أعرف.. أجل. أعرف جيداً أن الانتقام خروج على القانون، بينما الاعتداء مخالفة له فقط.. فأنا مدرّس للتاريخ! ولكنني قررت أن أنتقم.. وأن أنتقم بنفسي! (بحدة) فالقانون الذي يعتدى عليه دون رادع، ليس قانوناً هو البتة! (بيأس) ولأول مرة! أجل لأول مرة أصبحت أؤمّ الحان.. نعم أنا.. مدرّس الأدب والتاريخ! أنا الذي كنت منذ المساء آوي إلى عش لبنى! أصبحت أقضي ليلي مع السوقة في الحان أعبّ الخمر.. تلك الخمرة الرديئة القاتلة.. علّها تنقلني بعيداً عن لبنى.. وعن كلبها، وعذابها المبرح في جحيم قربها! لأعود إليها كل آخر ليل، ثملاً مخموراً.. كنت أقذفها بكل ما يأتي إلى يدي.. بل ومزّقت جميع ثيابها وقذفت بها إلى الشارع.. كل زينتها وأشيائها.. بل كل ما يتعلّق بها وبعوزها! لكي أجعلها قعيدة البيت تموت بحقدها.. (بانتصار) لقد فعلت هي الأخرى كذلك! ولكنه لم يعدّ يهمني.. لقد طردني أولئك الأوغاد من عملي لم أعد مدرّس التاريخ والأدب! لم أعد أصلح لذلك! هه.. ولماذا!؟ لأنني أشكّل على مصالحهم خطراً! أن أبغي الحياة الكريمة لأبنائهم، هه.. خطر.. أن أنقذ أبناءهم من ذلك الجنون.. أن أجنّبهم

Twitter: @ketab_n

من التردّي في وحل آبائهم.. هه.. يا للشقاء – خطر!

(يجلس إلى مكتبه بإعياء. يأخذ زجاجة الخمر الفارغة إليه.. يتأملها ثم يحاول استنزاف ما فيها من خمر، ثم يضعها بعصبية) لم يبقَ لي شيء. أجل.. طردني أولئك الأوغاد.. لقد قضوا على آخر عزاء لي! ولكنني لن أخضع لهم! ولن أستسلم ابداً.. لا يمكن أن أستسلم.. فلأمت جوعاً كما يبغون. يستطيعون هم شلّ معدتي وإسكاتها.. أما لساني، فلا! مستحيل أن.. (يصمت فجأة. ينصت إلى صوت الريح القوية بذعر) الريح الغربية مرة أخرى! هذه الريح المجنونة العاتية.. إنها تزهق روحي.. لا تهب إلا لاغتيالي.. حتى الريح – يا للعنة – جندوها لصالحهم! (بضيق) ألا تكف هذه الريح – بحق جهنم – عن هبوبها؟ لا بدّ وأنها لم تترك على الشاطىء.. ذرّة من الرمل واحدة! (بخوف) لا بد وأنها حملتها معها جميعها، وأنها كشفت عنها مرة أخرى! أوه.. كلا.. كلا.. حتى ولو كان إله العواصف نفسه فقد.. أوه.. يا إلهي! مستحيل لا أستطيع أن أتصور.. (ينصت إلى صوت الريح. يقفز ناحية الباب بذعر وفزع) دبيب أقدام! في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ يا للرهبة! إنها تدبّ.. وتدبّ.. هؤلاء الوحوش.. لا بدّ وأنهم قد.. لا بدّ وأنهم تبعوني إلى الشاطىء! لا بدّ وأن ذلك الوغد.. كان يختبىء خلف المنحنى! (متراجعاً) كلا.. لا

Twitter: @ketab_n

يمكن أن يكونوا.. إن أحداً لم يرني حين ذهبت.. (ينصت ثانية ثم يضيف) حذاؤه الثقيل.. نفس الحذاء نفس الدبيب.. لا بدّ وأنه يقترب من البيت.. إنه ينظر إلى النافذة.. نظراته تخترق الجدار! كلا.. بل هو قطيع من الأحذية.. الأحذية الثقيلة المفزعة. القطيع يزحف نحو البيت! (صوت الريح بوضوح.. صارخاً بغضب) ليوقف هؤلاء الأوغاد زحفهم المقيت.. ليسكتوا مطارق أحذيتهم. ليخرسوا هذه الطبول البربرية.. هذا الهتاف البشع على دروب المشانق! (يصمت.. الريح بهدوء. ثم باستغراب) إنهم يبتعدون.. يبتعدون.. (بخوف) نفس الليلة.. نفس الريح.. نفس الجنون! كنت ثملاً حين رجعت إلى البيت لقد شربت طول الليل دونما انقطاع! (بيأس) وجدتها تنتحب.. كانت تضم ذلك الكلب اللعين إليها.. كنت متعباً.. وفي أمسّ الحاجة إليها.. كنت أودّ لو أعانقها.. على صدرها الدافىء أنتحب! كان كلانا يحترق بعذابه للآخر، كان كلانا ينصهر في جحيم الثأر المتأجج في صدره. وددت لو ينسى كلانا ما بيننا.. لعنة الانتقام. لعنة هيرا. التي لا تزال تجري في دمائنا! أن نبدأ حياتنا من جديد.. ولكنها.. (بغضب) ولكنها لم تعطني الفرصة لذلك الجنون بعينه! أقصتني بعيداً عنها.. صرخت كالمجنونة في وجهي كما.. كما لو كنت وحشاً ضارياً! إنه الحقد.. ذلك الحقد الأسود. والذي كان

Twitter: @ketab_n

يأكل قلبها.. تلك النمرة الشرسة! (بثورة) لقد فقدت عقلي عندها.. انقضضت عليها.. قبضت بكل ما تملكه يداي من قوة، ورغبة في الانتقام.. على عنق ذلك الكلب المقيت.. كانت تقاوم.. النمرة الحقود تقاوم.. تنشب مخالبها المفترسة في عنقي.. إلا إنني لم أتركه.. زهقت روحه على صدرها.. بين ذراعيها! (بإعياء) لم أفكر أبدا في قتلها هي! لم أفكر مرة في ذلك! كنت أريدها تتعذب وتتألم بقدر ما أحببتها! إلا إنها.. هذه الشقيّة اندفعت كالمجنونة إلى الخارج تصرخ بأعلى صوتها! لقد جنّ.. سامي جنّ.. إنه يريد قتلي! يريد قتلي! يريد قتلي! (بهستيريا) الشقيّة.. أنا مجنون .. مدرّس الأدب.. مدرّس التاريخ.. مجنون! اندفعت خلفها.. (يتوقف فجأة. ينصت إلى صوت الريح ملتفتاً ناحية الباب بفزع) الأحذية المتوحشة.. يا للعنة إنهم يتقدمون! إنهم يعودون! (بجنون نحو النافذة. يزيح الستار ناظراً إلى الخارج) يا للشيطان! إنه هو نفسه! ذو القبعة السوداء! إنه يتوقف.. ينظر إلى النافذة.. نظراته المتوقدة.. لا شك أنه رآني، حين كنت أدفن جثتها عميقاً! خشية تلك الريح المسعورة! (متراجعاً بخوف) هذه الريح اللعينة.. كادت تحملها مع الرمال.. يا للرهبة.. لم يبقِ منها سرطان البحر شيئاً! تانك العينان! ذلك الفم الجميل! أوه.. يا لبشاعة الأشياء.. قطيع من

Twitter: @ketab_n

سرطان البحر!؟ كانت مجرد هيكل عظمي! رمّة متآكلة.. كيف حدث ذلك! كيف؟! وبمثل هذه السرعة! (بغضب) هذه الريح المقيتة أنّى أتت؟! (يعود إلى النافذة ثانية. يزيح الستار ناظراً إلى الخارج بغضب) إنه لا يبرح مكانه! عيناه المتوقدتان.. (يفتح النافذة بثورة) ما الذي تريده أيها الذئب؟ ها.. أيها الثور الهائج! إنني لا أخشاك.. لا! لا أرهب نظراتك هذه الخبيثة.. لم أرد قتلها.. إنك تعرف ذلك جيداً! أبداً لم أفكر في ذلك.. إنه ذلك الوقح كلبها ما أردت قتله! إنها فعلت ذلك بنفسها! لقد فرت من البيت.. كانت كالمجنونة تجري ناحية الشاطىء.. كانت تريد الانتحار ولا شك! إنني.. إنني لم.. لقد حاولت إرجاعها فقط.. ردها عن ذلك الجنون! ولكنها أبت! (بهستيريا) لماذا لا تتكلم! لماذا لا تأتي إليّ!؟ لماذا تقف كالصنم هكذا!؟ ها؟ لماذا لا تقول أنك رأيتني، أدفنها في جوف الرمل عميقاً.. عميقاً؟! فإنني لا أخافك.. هل تسمع؟ لا أرهبك! لقد فقدت كل شيء.. إنها هناك أيها الذئب.. هناك على الشاطىء.. كتمت أنفاسها بيدي هاتين.. هناك.. لا.. بل أنتم الذين قتلتموها.. لقد فعلت ذلك بإيعاز منكم.. لقد أردت إرجاعها فقط.. كانت تريد الانتحار! كانت تغرس أنيابها المتوحشة في يدي.. أردت إنقاذها من ذلك الجنون.. كانت تجري بكل قواها نحو البحر.. كادت تقذف

Twitter: @ketab_n

بنفسها في ليل أمواجه الرهيب.. (يندفع نحو الباب بجنون ثم يعود إلى النافذة) هناك.. هل تسمع.. فإنني لا أخافكم.. (يندفع نحو الباب بجنون يحاول فتحه) لا أرهبكم.. سأتحداكم جميعاً.. سأنتصر عليكم جميعاً.. جميعاً.. وحدي (يخرج) وحدي.

ستار

(انتهت)

Twitter: @ketab_n

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n


«...في الفترة التي امتدت بين ١٩٤٨
و١٩٦٨، قدم المثقفون العرب في فلسطين
المحتلة، من خلال أقسى ظروف القمع، والأسر
الثقافي، نموذجاً تاريخياً لثقافة المقاومة، بكل
ما فيها من وعي وصمود وصلابة، وأهم من
ذلك، بكل ما فيها من استمرار وتصاعد وعمق.»
9 789963 610891